من أعجاز القرآن

الخواطر السوانح

في أسرار الفواتح

تأليف

ابن أبي الاصبع المصرى

المتوفى سنة ٦٥٤هـ

تقديم وتحقيق

الدكتور حنفى محمد شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع البحث - أهدافه - منهجه - مصادره

- ١ -

تحدثت فى تقديمى لكتاب «بديع القرآن» عن آثار ابن أبى الإصبع ، وعند الكلام عن كتابه : «الخواطر السوانح فى كشف أسرار الفواتح» قلت : إن هذا الكتاب مفقود ، لأنى لم أعثر عليه بعد بحث طويل فى فهارس الكتب ، وعندما جىء بكتب المكتبة الزكية التى كانت محفوظة بمكتبة الدار بالقلعة إلى قسم « إحياء التراث » لفهرستها وتصنيفها ، راجعت جذاذات كتب هذه المكتبة لعلّى أعثر على كتاب يتصل بأبحاثى فى البلاغة والنقد ، فوقع نظرى على اسم هذا الكتاب الذى قلت : إنه مفقود ، فأعدت النظر مرة أخرى فوجدت منه الضّالة المنشودة إذ هو لصاحبى ابن أبى الإصبع الشاعر الكاتب المصرى صاحب « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » فطلبت الكتاب لمراجعته والتحقق من عنوانه وموضوعه والتثبت من نسبته إلى صاحبه ،

وتصفحته ، فإذا أنا أمام بحث فريد فى نوعه يكشف فيه مؤلفه عن أسرار فواتح السور القرآنية ومعانيها ، ويبين فيه أن تلك خطرات خطرت له فى شهر رمضان المعظم عندما أراد أن يشغل نفسه فيه بالتفرغ لعمل نافع ، يجعله بعيدا عن الرفث والفسوق والعصيان .

— ٢ —

ولقد فكر المؤلف أن يكتب عن بلاغة القرآن وفصاحته ، وجوامع كلمه وفوائده ، وغرابة أسلوبه ونظمه ، وعجائب معانيه وبديعه وسهولة تأليفه ، وحلاوة موقعه وطلاوة رونقه ، لأنه وجد أن كل من ألف فى ذلك تأليفا لم توف عبارته بوصف ما أراد ، ولم تقم ألفاظه ببعث ما قصد ، ولم يذهب فى استخراج الإعجاز وتقريره مذهبا تقوم به الحجة عند التحدى ، أو يمنع الدخل عند المعارضة .

ثم صرفه عن ذلك ما هو أهم فى نظره ، لأنه وجد هذا الأهم يحصل به غرضه الذى قصده من تقرير الإعجاز ، فألف هذا الكتاب فى البحث عن فواتح السور المفردة ، المعربة والمعجمة ، لأنها تنظم إعجازا يحصل به الاستدلال القاطع للمعارض والمعاند .

— ٣ —

ووجدت المؤلف بنى هذا الكتاب على ثلاثة أركان ، كل ركن منها يتضمن بابين ، وتكلم فى الركن الأول عن حصر الفواتح وأقسامها وتعريف إعرابها وإعجامها ، وتحدث فى الباب الأول منه عن الفواتح المعجمة وتعريفها وأعدادها المنقسمة إليها ، وفى الباب الثانى منه تحدث عن الفواتح المعربة وأعدادها البسيطة والمركبة .

وفى الركن الثانى منه كشف عن أسرار هذه الفواتح و إيضاح خصائصها وإظهارها . ففى الباب الأول منه كشف عن أسرار الفواتح المعجمة وحكمها وتبيين جملها وقسمها ، وفى الباب الثانى كشف عن أسرار المعربة ومعانيها والكلام على تقسيم أشكالها ومبانيها .

وفى الركن الثالث منه أبان عن دلالة تلك الفواتح على الصانع والمصنوعات ، الكليات والجزئيات ، البسائط والمركبات ، ومايتنخل من ذلك من المعجزات المعجّزات للبلغاء فى كل زمان ومكان .

ففى الباب الأول منه تكلم عن الاستدلال بها على الصانع وللصنوعات .

وفى الباب الثانى استنبط منها المعجزات المعجّرات .

— ٤ —

وتحقيقاً لرغبتى التى أقصدها ، وهى العناية بوضع كتب أصحاب الاتجاه المصرى فى البلاغة والنقد، وما يتصل بهما تحت أيدى الباحثين والدارسين ، اعتزمت تحقيق هذا الكتاب ونشره ، ووجدت لزاما علىّ أن أقدّم له تقديما يتصل بموضوعه، ويكشف عن مزاياه، ويسهل للقارىء فهمه ، فقدمت له بما يأتى :

١ — أبنت حال الأمة العربية وما كانت عليه قبل نزول القرآن ، ومقدار حاجتها إلى ثورة اجتماعية ، وأثر القرآن فى جمع الشمل ورفع مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، والقضاء على الوثنية وتخليص العقل البشرى من الأوهام ، ومنح الفرد حريته فى الحدود المعقولة ، كما أبنت فيه احتواء القرآن على التعاليم التى يجب أن تتبع لنهضة الأمة على أسس قويمة ، ووضعه التشريعات التى ترقى بها المعاملات ويسعد بها الإنسان نفسيا واجتماعيا ودينيا ، كما أوضحت أن القرآن لم يغفل بجانب ذلك الناحية القومية والدفاع عنها والاستعداد والتضحية فى سبيلها .

وأخيرا قلت : إن إعجاز القرآن يجب أن يدرس من نواحٍ متعددة لا من الناحية البيانية فحسب .

٢ — تكلمت بعد هذا عن نظم القرآن وأثبت أن نظمه إجمالا وتفصيلا غير ما اعتاده بلغاء العرب وفصحاؤهم قبل نزول القرآن وبعده ، فعرضت لشمول إعجازه ، مهما اختلف الزمان والمكان ، وذكرت أوضح آراء القائلين بإعجازه البيانى ، وقلت : إن أغلب آداب العربية كانت وصفية حسية بمعنى أنهم يصفون ماتقع عليه حواسهم ، وقلت : إن القرآن بعيد كل البعد عن المبالغات التى اعتادها الناس والتى تؤدى بهم إلى الكذب ، كما نأى فى نظمه عن الشعر واصطلاحاته التى تجعله مبنيًا على الوهم والخيال ، وأوضحت أن آياته دائما بليغة مهما اختلف موضوعها ، بخلاف نثر وشعر الشعراء الذى يختلف باختلاف الشاعر والكاتب .

وانتهيت إلى أن القرآن فيه من الآيات ما بلغ حدّ الإيجاز مع اشتمالها على المعانى التى عجز العرب عن مضارعتها والإتيان بمثلها إيجازا ومعنى ، كما أنه جمع بجانب ذلك فنون البلاغة .

٣ — وتحدثت عن القرآن والعلم ، وقلت إن القرآن كتاب هداية وإرشاد ، وقلت أيضا : إنه كتاب علم وليس معنى ذلك أنه يصلح مرجعا للكيمياء أو الطبيعة أو الرياضة .

وأخيرا قررت أنه يحتوى على ألفاظ وآيات تصلح لأن تكون عنوانات للتفكير فى علوم شتى .

٤ — تكلمت عن فواتح السور القرآنية ، واتجاه العلماء إلى تفسيرها واختلافهم فى معانيها ، وأثبت مقدار اهتمام علماء الكلام والتفسير فى هذا المضمار ، وأبنت كذلك رأى أغلب العلماء القدامى ، ولم أغفل كذلك رأى بعض العلماء المعاصرين.. ناقشت الجميع رأيهم . وقلت أخيرا : إن جميع العلماء القدامى والمحدثين لا يخرجون عن القول بأن هذه الفواتح رموز وإشارات ومن ثمّ كانت بلاغتها .

٥ — ثم تكلمت عن كتاب «الخواطر السوانح»: موضوعه ومنهجه ، وأسلوبه وأصله الذى رجعت إليه ، والطريقة التى انتهجتها فى تحقيقه.

ولعلّى بذلك أكون قد وضعت تحت يد الباحث أثرا من آثار الاتجاه المصرى فى البلاغه والإعجاز ، وأظهرت للباحثين أغلب آثار صاحبى ابن أبى الإصبع الكاتب الشاعر المصرى وهو جدير بذلك . والله حسبى ونعم الوكيل .

حفنى محمد شرف

الاثنين { ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ
٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٥٩ م

حالة الأمة العربية قبل نزول القرآن و بعده

— ١ —

كانت الأمة العربية قبل نزول القرآن متفرقة، تنحاز كل قبيلة فى ناحية دون الأخرى. وكان أمر تلك القبائل قائما على الاستبداد والتخلق بالعادات المتأصلة فى نفوسهم — وكان منها الحسن ومنها السيىء — بباعث العقائد والعادات الموروثة التى كان من شر نتائجها الشرك بشتى ألوانه الظاهرة والخفية. وكانت الأمة العربية تقاسى من جراء ذلك أشد صنوف المحن أفرادا وجماعات، من الوجهتين النفسية والاجتماعية. وكان بجانب هذا وذاك القياصرة والأكاسرة الذين يحكمون رعاياهم بالقهر والغلبة. ويسومونهم الذل والهوان، زعما منهم أنهم قد أعطوا السلطة الإلهية التى يجب الخضوع لها.

فكانت الأمة العربية — والحالة تلك — فى مسيس الحاجة إلى ثورة عالمية، وهزة إصلاح كلية، وحكومة رشيدة قومية لها دستورها الموحد الذى يسوى بين البشرية ويخلصها مما كانت فيه من حكم قاس وفاقة ساحقة، كما كانت بحاجة إلى قانون يصلح المجتمع، وعقيدة يلتفون حولها.

فأرسل الله إلى هذه الأمة رسوله الذى أرسله للناس بشيرا ونذيرا،

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ليرشد الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ما فيه سعادتهم وحسن مآبهم .

فكان قانونهم المساواة ، ودستورهم القرآن ، وعقيدتهم الإسلام ، وهدفهم السلام ، ليخلص الإنسان من براثن الشرور والأحقاد ، ويحرّره من هوّة الظلم والاستعباد .

نزل القرآن فقضى على الوثنية ، وخلص العقل البشرى من الأوهام ، وأعطى للإنسان حريته كاملة غير منقوصة ، وأبعده عن تأثير الوسطاء والشفعاء ، وقرر أن ينال العامل الجزاء إن خيرا فخيراً ، وإن شراً فشراً ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » .

فبذلك ضمن للفرد حريته الشخصية . ولم يضع له حدا فى اجتهاده ، وأطلق له استثمار الحياة بالطرق المشروعة « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وطلب إليه أن يعمل — وسوف يثيبه على عمله — بنسبة مايصل إليه جهده ، وعلى قدر ما تسمح به قواه البدنية والعقلية فى دائرة احترام الحق والعدل ومراعاة المصلحة العامة .

كما أعلن القرآن الحرب على التقليد ، ونادى العقل ليستيقظ ، ويملى

سلطان حكمه المعقول ، وأبان له الصفات التى يجب أن يتصف بها ، ونأى بالأفئدة أن تهيم بعادات الآباء وعقائدهم التى تخالف العقل والدين وسنة الله التى لا تبديل لها « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ؟ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » ولا شك أن القرآن بذلك ميّز الإنسان بميزتى الاستقلال ، وحرية التفكير والرأى وبذلك تكمل إنسانيته .

— ٢ —

إن القرآن دستور إلهى ، حوى من المواد والتعاليم ما يصلح لإنهاض الحياة على أسس قويمة ومساواة وإخاء « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

فكان فيه بعد الكشف عن صفات الله وصفات رسله ، والواجب على الفرد نحو الله ورسله من التوحيد والتنزيه ، كان فيه ذم التواكل والاقتصار على أمور الآخرة ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة ، والأحاديث النبوية الواردة فى كتب السنة عديدة ، كما بين الحكم العدل ومحاسنه والظلم ومساوئه ، ورعاية شئون الأسرة وتعاليم السياسة والمعاملات ، ومدح العلوم والمعارف والحكمة والأدب ، وذم الجهل ومنع مصاحبة الأشرار ، ورغب فى أعمال البر ، والإنذار بعقوبة الخونة والمنافقين العاملين لمصالحهم الذاتية ، وأوجب

علينا دراسة أحوال الأمم التى خلت ، والاستفادة من تاريخها وتجاربها « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، واستخدام العقل فى فهم المسائل ، واختيار الأحسن منها واتباع معالى الأمور والبعد عن سفسافها .

— ٣ —

وضع القرآن التشريعات التى من شأنها إصلاح حال الأسرة ، فأباح تعدد الزوجات بشروط معروفة ، فكفل العدالة والإصلاح ، ولم يطلقه كما كان قبل الإسلام « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وكان له بجانب إصلاح حال الفرد وحال الأسرة ، إصلاح حال المجتمع البشرى فأمر الإنسان بالاتحاد والاعتصام بحبل الله ، والبعد عن التفرقة المؤدية إلى الدمار « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

كما وضع التشريع الصالح للمعاملات والمعاهدات التى تؤدى إلى الرقى الاجتماعى . ولذلك لا يعترف القرآن بعمل لا يؤدى إلى سعادة الإنسانية نفسيا وبدنيا واجتماعيا ، فأعطى حق الحياة للعامل المجتهد ، وحارب العطل والبطالة ، وكفل الحقوق لذويها ، وحض على استصلاح المعيشة واستخدام العقل فيما لا يضر « لا ضرر ولا ضرار » ، « إنا لانضيع أجر من أحسن عملا » .

كما فرض الإسلام الزكاة وأوضحها القرآن لرفعة المجتمع ، وبث روح المحبة والتعاون والإخاء بين الناس حتى لا يحقد فقير على غنى ، ولا يقتر غنى على فقير .

وفرض القرآن على المسلمين الاستعداد دائما، والدفاع عن الدين والقومية، ولا يكون ذلك إلا بالجيش والسلاح « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، وقال « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وقال : « وليأخذوا أسلحتهم » ولم يفرق فى تأدية الجندية بين إنسان و إنسان بالنسبة إلى وطنه وعنصره ، فلم يميز أحدا لجنسيته أو نبالته أو مكانته، وذلك لتوطيد العدل، ونشر السلام ، ولذلك ينادى الناس بقوله : « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكان له بجانب تقوية النفوس، ونشر السلام، وتوطيد الوئام، والاستعداد لملاقاة الأعداء بيان المعاهدات ، وعقد المصالحات بشروط لا تترك وراءها حقدا ولا غلا ، ولا تخفى فى باطنها مكمنا للانتقام ، ولا يكون فيها ما يشتم منه تحقير الإنسان « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

قصدت بهذا إلى أن أبين أن حالة العرب قبل نزول القرآن كانت تستدعى الإصلاح الاجتماعى ، والثورة على الأوضاع المظلمة الظالمة ، ولهذا فإنى أرى أن القرآن يجب أن يدرس إعجازه من نواحى متعددة ، ولا يقتصر البحث فيه على الإعجاز البيانى الذى لجأ إليه كثير من العلماء القدامى ، وخاصة من اتجه بدراسته اتجاها بيانيا .

والحق ماشهدت به الأعداء ، فقدقال المستر جوته[1] : كلما قلبنا النظر فى القرآن تملكتنا الروعة والوجل ، ولكننا سرعان ما نشعر نحوه بجاذبية تنتهى بنا حتما إلى الإكبار ، فهو بين الكتب المقدسة نموذج عال رفيع ، وسوف يحيا تأثيره فى النفوس فى جميع الأجيال والعصور .

وقال المستر جيبون : الدستور الإسلامى دستور شامل موحّد بين الجميع من الرأس المتوج إلى أبسط الأشخاص ، لأنه يقوم على حكمة أنتجتها أوسع العقول معرفة بهذه الحياة .

---

(١) المسلم العدد الثامن . السنة التاسعة : ٤٠

نظم القرآن

إعجاز القرآن عام وشامل، فلا يختص بأمة دون أمة، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان.

وإعجازه تحدث فيه العلماء كثيرا ونوعوا الإعجاز، وكان لعلماء الكلام فى ذلك القدح المعلى.

فمن قائل: إنه معجز بالصرفة، وإن القوم فى مقدورهم الإتيان بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك.

ومن قائل: إن إعجازه باشتماله على أخبار الأمم السابقة، وإخباره بالمغيبات والمبدأ والمعاد.

ومن قائل: إن إعجازه بأسلوبه البيانى ونظمه العجيب واشتماله على الألوان البلاغية التى تشمل صفات الأدب الخالدة من مبادئ وافتتاحات، وفواصل ومقاطع وتشبيهات واستعارات.

فقال فخر الدين الرازى[1]: وجه الإعجاز فى القرآن الفصاحة وغرابة الأسلوب.

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن الحسين بن حسن بن على التيمى البكرى الطبرستانى الرازى المولد الملقب: فخر الدين المعروف بابن خطيب الرى المتوفى ٦٠٦ هـ وصاحب التآليف العديدة (٢) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ٦-٧.

وقال الزملكانى[١] : وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف ، فاعتدلت ألفاظه تركيبا وترتيبا ووزنا[٢] .

وقال ابن عطية[٣] : الصحيح الذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه إعجازه أنه بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالى صحة ألفاظه .

وقال بعضهم : وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارا لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وإذا قورن بكلام العرب، ومن تكلم بلغتهم نجد هذه البلاغة لا تستمر فى كلامهم، ولا فى جميع أنحاء العالى منه، اللهم إلا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات التى تنقطع فيها هذه البلاغة ، ويعدم الكلام رونقه[٤] .

وابن أبى الإصبع من بين هؤلاء العلماء الذين يرون إعجاز القرآن فى نظمه وأسلوبه واشتماله على التراكيب البلاغية التى يعرفها العرب ويسمون

---

(١) العلامة عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصارى الشافعى المعروف بابن الزملكانى وصاحب التبيان فى علوم البيان والمتوفى سنة ٦٥١ هـ .

(٢) انظر مقدمة التبيان فى علوم القرآن له مخطوط ومحفوظ بدار الكتب تحت رقم ٣٩٥ بلاغة .

(٣) أبو محمد عبد الحق بن أبى بكر بن غالب الفقيه المحدث المفسر أخذ عن والده وتوفى سنة ٥٤٢ بالأندلس (طبقات المالكية ط القاهرة سنة ١٣٥٠ م .

(٤) انظر هذه الآراء كلها فى الاتقان للسيوطى ٢ : ١١٩

صاحبها بليغا ، وألف فى ذلك كتابا تتميز فيه بلاغات القرآن و بديعه، ليسهل من وراء ذلك استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه و إيجازه(١) .

والذى لحظته على العلماء القائلين بإعجاز القرآن البيانى اهتمامهم بنظم القرآن ونسقه لأنهم وجدوا نظمه مؤتلفا ، وخلاف ما اعتاده بلغاء العرب وفصحاؤهم قبل نزول القرآن وبعده، فأردت أن أعرض لهذا النظم كاشفا عن غرابته وإعجازهم عن الوصول إليه(٢) .

— ٢ —

لأجل أن يتمكن الناقد البصير من الحكم بأن نظم القرآن وآياته إجمالا وتفصيلا تختلف كل الاختلاف عن النظم والترتيب اللذين اعتادهما شعراء العرب و بلغاؤهم حتى ساعة تبليغ الرسالة المحمدية الشاملة لدين الله الإسلامى الجديد، فمن الضرورة القصوى الإلمام بمبلغ ما وصلت إليه الآداب العربية من الرفعة وعلو الشان . فبهذا وحده يمكن للواقف على تاريخ تلك النهضة البديعية أن يعرف قدر إعجاز القرآن فى بلاغته وبيانه و بديعه نظما وترتيبا وحكما ، وأنه جاء بخلاف ما اعتاده الفصحاء والبلغاء فى استخدام البليغ البديع من لغتهم، وعلى غير ما ارتضوه من النظم والترتيب فى إنشائهم.

---

(١) انظر مقدمة بديع القرآن ط القاهرة ١٩٥٧ م .

(٢) انظر مقدمة ترجمة القرآن بقلم سيف الدين رجال (الأرجنتين سنة ١٩٤٥)

وقد اعترف هؤلاء بهذا ـ وهم فحول البلاغة وسادتها من العرب ـ واعترف به غيرهم فى عصرهم. فلم يبق إذن لمن بعدهم من المتأخرين ـ من العرب أو من غير العرب ـ مجال للإنكار بعد ذلك الإجماع ، على أن العارفين من الأمم الأعجمية و إن جهلوا العربية فقد حقت شهادتهم عن إنصاف وتقدير بما فيه من دقة الإحكام ، وكمال الهداية فى التشريع ودستور المعارف النافعة .

إن أكثر « آداب اللغة العربية » قبل الإسلام كانت على الغالب وصفية ، إذ تتضمن وصف الأشياء التى كانت تقع تحت حواسهم وصفا بليغا ، كوصف إبلهم وخيلهم ، أو تفصيل بعض الجمال والحسن من امرأة شغفتهم حبا ، أو توجيه المديح لأمير أو ملك من أمرائهم وملوكهم لاستجداء نعمته ، أو إطراء من يميلون إليه ، وهجاء من لا يجدون إلى ولائه سبيلا ، أو نقد عادة ذميمة ، أو خلة عقيمة ، أو تفصيل طعنة أصابوا بها كبد عدوهم ، أو وقائع غزوة من غزواتهم .

لا غرو أن ينبغ فى كل زمان من الأزمنة السابقة والحاضرة أدباء بلغاء يتمثل فيهم العقل فى بلوغ رشده ، فكانوا سادة قومهم فى نبوغهم ، وهم فيه يظهرون بمظهرهم الخاص الذى يميزهم عن غيرهم ، وهذا طبيعى عند كل الأمم .

لزاما على رجال الأدب ، فى العصور اللاحقة ، أن يكونوا على إلمام

تام بمبلغ علوم البلاغة وارتقائها فى عصرهم بحيث يخرجون للناس نوعاً من الكتابة أرقى بكثير مما كان يستخدمه البلغاء فى الأزمنة السابقة ضمن دائرة وطنهم . ولقد ارتقى علماء الأدب العربى وتطوروا بتطور بيئتهم وجددوا فى إنشائهم فى العهد الإسلامى وأجمعوا على إعجاز القرآن ، ومنهم من ألف الكتب المطولة واقفين عند حدهم الإنسانى .

والقرآن ، بعكس ما كان ينسجه العرب فى العصور السابقة للدعوة الإسلامية وفى غضونها ، وفى العصور اللاحقة بعد أن استتب للاسلام أمره ، بالنسبة إلى نظمه الجديد المعجز ، الذى لم يكونوا ليعرفوه ، لم يخضع لاصطلاحات الأدب والبيان التى سادت فى أيام تبليغه بل تحدّى به البلغاء والفصحاء منهم . ومن ثم ، فلا مثيل له فى تآليفهم ولا فى إنشائهم من جهة أنه أكبر وأعلى — لإعجاز بلاغته وعظمة معانى آياته ، وإبداع مبانيها — من كل ما أجهدت النفوس القادرة على الإتيان بمنتهى الفن البليغ فى كلامهم ، من قواعد بيانية .

— ٣ —

إن القرآن فى جميع أحكامه لم يتصدّ إلا إلى اتباع الحقيقة فقط ، وكان فيما يتوجه به من الآيات المحكمات بعيداً كل البعد عن مناحى الكذب والمبالغات التى يعتادها الكتاب فى كلامهم البليغ ، وهو

فى إعجازه فى بلاغته ، قد نشر الملأ من أهل الأدب والمتأدبين مثالا أرفع من نسق الإنشاء البليغ الفصيح . وقد نأى فى نظمه عن الشعر واصطلاحاته النظمية والنثرية التى يحيط بها التصور الوهمى والخيال والمبالغة والكذب — فى غالب الأحيان — ليصح أن يحكم ببلاغته وفصاحته .

ونحن لا نجهل أن كلّ شطرة من شطرات الشعر لا تتصف بجمال النظم والنسق ، وكمال البلاغة والفصاحة فى التعبير إذا فصلت عن أختها ، أو عما يتبعها من الشعر حتى قالوا يجب أن ننظر إلى القصيدة كوحدة قائمة بذاتها ، وهذا عكس ما هو مشاهد فى القرآن من أن كل آية من آياته ، دون استثناء ، ذات نسق كامل وبلاغة لا مثيل لها ومعان ساحرة ولا يختلف فى ذلك وجيزها وطويلها .

من المعلوم أيضاً أن كل كاتب ، أيّاً كان شاعراً أم ناثراً ، إذا اضطرته الظروف إلى تكرار موضوع بعينه ، أو إعادة ذكر قصة ، أو الرجوع فى كتابته إلى سرد نفس البحث الذى ألمّ بأطرافه من قبل ، لم يخرج فى تكراره وإعادته ورجوعه إلى ما سبق له اتباعه من إعادة ما سبق وتكرار ما قال فى ملل يشل الفكر ويبهم المعنى . ولكن فى القرآن قد تكرّر ذكر الحوادث وتفصيل مبدأ الخلق وميعاده ، وبيان مجمل التشريع ومفصّله فى آيات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً تاماً

فى مبانيها وألفاظها التى استخدمت لكل واحدة منها فى كل فقرة وجملة منها ، إيجازاً وتطويلا ، فكانت كل آية منها على درجة عظمى من البيان والبديع ، وعلى فنّ أعلى فى النظم والتفصيل سواء كانت خاصة بأمور عالم الشهادة أم بعالم الغيب دون أن تذهب منها طلاوتها ، وكمال معانيها الساحرة والإعجاز فى بلاغتها .

— ٤ —

إن جميع آيات القرآن إنما جاءت بتقرير بيان العبادات ، والأعمال الصالحات ، والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وإحسان النية فى الاستقامة على الطريقة والأخلاق الفاضلة ، والتمسك بمعالى الأمور والتنزه عن سفسافها ، وإصلاح الحال فى الدنيا ، ببيان التشريعات الكفيلة بإصلاح المجتمع فيها ، والخروج منها على ما يكفل السعادة فى الآخرة . وقد أكد هذا كله بقوة مكينة وكرره المرات العديدة ببأس شديد ، فى آيات تأخذ بمجامع القلوب والعقول معاً لسحر تفسيرها وصريح إعرابها . وهذه المجموعات ، كما لا يعزب عن فكر أحد ، تهبط من مقام البلاغة والبينة اللتين أولع بهما ذلك العربى من يستهويه البيان إلى الإعجاب ، وتغريه الفصاحة إلى الاطراب . ولا نذهب فى ذلك إلى دليل

ظاهر أكثر من القول الفصل بأنه لو عرض على شاعر أو كاتب — مهما كان أديبا بليغا ومنشئا فصيحا —، أن يصدر للناس عشرة أحكام شرعية أو عشرة موضوعات دينية ، بكلام ذى درجة عالية فى البيان والبديع والبلاغة والفصاحة ، بحيث يحلّيها بالمجاز والكناية ، وما إلى ذلك من مستلزمات الاصطلاحات المتفق عليها فى البلاغة ، لحر فاشلا عند محاولة البدء بهذه المهمة الشاقة .

ومن المعروف فى العربية ، والمتفق عليه بين جميع علمائها أنه إذا نبغ إنسان فى إحدى نواحى هذا الفن لم يكن كذلك فى ناحية أخرى منه . ولدينا أمثلة كثيرة من شعراء الجاهلية الأولى . فلقد كان شعر النابغة الذبيانى بليغاً فى أمور الحرب ، وشعر الأعشى فى الشكوى وفى الوصفيات وفى الخمر ، وشعر زهير فى الغزل وفى الأمل ، وشعر امرىء القيس فى شرح الملذات ووصف الحبيبة والخيل .

لكن آيات القرآن دائماً بليغة لحد الإعجاز مهما كان موضوعها وعلى أية صيغة صدرت دون أن يكون من مبلغ الاستطاعة استثناء آية واحدة منها من هذا الحكم العادل .

— ٥ —

مما لا يخرج عن إجماع أهل فن الأدب أنه إذا جاء فى جملة عديد من الموضوعات التى تنوّعت مراميها باختلاف مبادىء كل منها وغاياتها ، فقدت تلك الجملة قوة بلاغتها وذهب منها رواء بهجتها ورونق جمالها . ومع ذلك ، فقد وجدت فى القرآن آيات طويلة مشتملة على ذكر بعض الحوادث ، والانتقال منها إلى عرض حوادث أخرى تماثلها ، أو تكون على طرفى نقيض منها ، كما وجدت فيه آية واحدة تحمل فى نفسها بعضاً من الأوامر والنواهى ، والقصص والاستفهام ، والجزاء والوعد والوعيد ، وإثبات نبوة بعض الأنبياء ، وتوحيد الله وتعداد صفاته وتنزيهه والحض على عبادته والإغراء والتحذير وضرب الأمثال الحكمية ، وتفصيل حال الأمم السابقة ، ولفت النظر إلى نفسية الأمم الحاضرة ، وغير ذلك . ولكن على الرغم من وجود هذه الأمور فى آية واحدة ، فإن تلك الآية دائماً على درجة من البلاغة العالية التى تبعد عن قواعد فن الأدب المتفق عليها بين رجاله من البلغاء المشهورين ، والفصحاء المعروفين .

قد أتى القرآن بآيات وجيزة جد الإيجاز وهى على الرغم من إيجازها ، تشتمل على معان كثيرة ليس فى مكنة أحد أن يأتى بها إلا باستخدام

تعبيرات مطولة لكل معنى من معانى الآية الواحدة المتعددة ، التى هى فى بلاغتها وفصاحتها تؤثر بمعانيها الساحرة وتعمل فى النفوس فتخضعها إلى الإذعان . ولا نذهب بالقارىء بعيداً . فإننا ندعوه إلى تدبر سورة (ص) . فهذه السورة القصيرة قد افتتحت بمقدمة جميلة بليغة ، يتبعها تفصيل دقيق للمنكرين وما يماثلهم من أهل الإلحاد وتأنيبهم ، وتذكيرهم بتنكيل الله لمن كان على شاكلتهم من الأمم التى سبقتهم ، وذكر تكذيب هؤلاء للنبى محمد — صلى الله عليه وسلم — وارتيابهم فى بعثته ، ووصف ما انطوت عليه نياتهم بإجماعهم على الاستمرار فى شركهم ، وصدق تمثيلهم بما يدفعهم من الحسد الذى يحدوهم إلى زخرف من باطل أقوالهم ، وكشف الغطاء عن عجزهم ، وتحقيرهم وإنذارهم بالفشل فى دنياهم وأخراهم ، وتذكيرهم بما آل إليه حال الأمم السابقة من المكذبين من التنكيل بهم ، وبأن سوء عاقبة من يقلدهم من العرب وغيرهم سواء بسواء كسوء عاقبتهم . وبعد تفصيل كل هذا عنهم ، جاء فى السورة بصدق النصح لنبيه — صلى الله عليه وسلم — بأن يدأب على تبليغ رسالته ، ولا يفتر عن جهاده ، وأن يكون له أسوة حسنة بما أصيب به من سبقه من الرسل والنبيين من قبل كابراهيم ويعقوب وداود وسليمان وأيوب عليهم السلام . وقد فصل ذلك فى آيات قصيرة وجيزة ذات معان بليغة ومبادىء عالية وغايات مثلى .

— ٦ —

إن القرآن قد حوى جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة واحدة منها . ولم يستطع بليغ من بلغاء العرب أن يصل إلى هذا الكمال الجامع مهما كان نبوغه . إنما وصل بعض البلغاء إلى سؤدده فى ناحية أو اثنتين من نواحى البلاغة ولم يستطيعوا أن يمدوا أعناقهم إلى أكثر من ذلك . وقد وجد من الكتاب الجاهليين من وصل إلى درجة كبرى فى أدب اللغة كما وجد أمثاله فى العهد الاسلامى قديماً وحديثاً . لكنهم جميعاً قد اعترفوا للقرآن بميزته المعروفة وبإعجازه وأعلنوا صدق عجزهم عن الإتيان بمثله أو تقليده ، وهذا دليل قاطع على أنه كتاب كريم أوحاه الله إلى رسوله ، ثبت من آيات الإعجاز ما لا يجوز معه الإنكار ، سيكون المعجزة الخالدة على مرّ الدهور .

كما أن القرآن نشر بين أعداء الدين ممن تربوا فى أحضان الشرك والوثنية ، وامتزج بدمهم التعصب لما دربوا عليه من سخيف العقائد والعادات ، وبين كثير من المنكرين الذين قد اختاروا من المبادئ ما وافقهم دون علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد نبغ منهم شعراء وأدباء ذوو معارف لا يستهان بها . لكنهم لم ينكروا أن القرآن فى نظمه وبلاغته خارج عن مألوفهم ، وقد ثبتوا على توكيد قولهم بأنه على درجة

من الإعجاز ليست فى مقدورهم ، معترفين بالفرق العظيم بين بلاغته وصيغته وبين نسق نثرهم ونظمهم ، وانتهى الأمر بهم بعد عجزهم عن تقليده إلى القول بأنه سحر فى اللغة البليغة والأدب العالى غير معروف لديهم .

ويلاحظ أن البلغاء ، عندما أشرقت شمس الإسلام ، كانوا كثيرين وكانوا مشهورين بتعصبهم إلى شعرهم الذى طبعوا على طريقتهم فيه ، وكان يتحدى بعضهم بعضا فيما كان ينظمه من قصائده ، وكانوا يغلون فى دفاعهم عن آبائهم الأولين إلى حد الاستماتة فيه ، تحداهم النبى — صلى الله وعليه وسلم — علناً إلى الإتيان بمثل ما جاء به من آيات — القرآن الكريم وقد وضع لهم أجلا معلوما ليجيبوا على تحديه ، ثم أزفت آزفة الأجل المعين بفوز الحقيقة ، وعدم امكانهم الإتيان بأقصر سورة منه . فى هذا المجال يقول القرآن فى سورة الإسراء[1] . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

انتهى الأجل المعين على الرغم من طوله ولم يستطع المشركون والذين كفروا أن يأتوا بمثل القرآن . فأمهلهم النبى إلى أجل آخر أمره به ربه ، وتحداهم مرة ثانية ليأتوا بعشر سور فقط من مثله ، فقال فى سورة هود[2]

---

(١) آية : ٨٨ .

(٢) آيتا : ١٣ ، ١٤ .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

خاب فأل المعارضين من الذين كفروا ، والذين أشركوا ثانى مرة وفشلوا ولم ينبسوا ببنت شفه بعد تحديهم . فأراد الله أن يجعل كلمته هى العليا ، إذ أمر رسوله أن يتحداهم وأن يترك لهم أجلا أطول ، وأن يخفف عليهم جهدهم بدعوتهم إلى الإتيان بأقصر سورة منه فقال لهم (١) :﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ .

انتهى الأجل المضروب لثالث تحد ، ولم يستطع هؤلاء أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فصدق الله وعده وحق الحق على المنكرين ، ونصر الله رسوله وهو خير الناصرين .

— ٧ —

قد أثبت التاريخ إجماعا أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان أميا . وفى كثير من الآيات القرآنية إثبات أنه كان كذلك أميا ، ولم يحظ

(١) سورة البقرة آيتا ٢٣ ، ٢٤ .

بشيء من العلم ليكون مشرعاً ولا أن يكون عالماً ولا نابغة في أدب الكتابة . ولم يكن على شيء من المعارف الكونية يستطيع معه أن يقود أمة بأسرها ، وأن يضع لها قوانين وأحكاماً تهيء لها سبيل النظام ، وأن يصفو أدباً ونفساً وبدناً . ومع ذلك فقد حوى القرآن كثيراً من المعارف الخاصة ، ومثلها من القوانين الكونية العامة التي لم يجهلها العرب وحدهم بل كانت بعيدة عن اطلاع النبي — صلى الله عليه وسلم — نفسه ، لا سيما ما كان منها خاصاً بشريعة جديدة لم يكن العالم بأسره حين تبليغها على علم منها ، ذلك بأن لم يكن لديه شيء منها ، ولا تصور أن تكون لديه ليعمل بها يوما من الأيام .

والقرآن يشتمل غير ذلك ، على تعاليم ذات أدب جم ، راقية أحسن رقي ، وذات عبرة قيمة لا يمكن تقديرها ؛ ومنطق يرشد به العقل إلى الرأي الصائب ، والفكر الثاقب .

وفي القرآن كثير من القصص غايتها إحقاق العدل ، ومحاربة الظلم والجور ، وبث الكمال والفضيلة في جميع وجوهها . وفيه ما لا عدّ له من الحكم والأمثال وللمواعظ التي ترشد العالم إلى سواء السبيل في جميع مرافق الحياة .

ويجمع وفيراً من قواعد الفلسفة الصحيحة الوجيهة ، وعديداً من سنن

الطبيعة ، وعلم التوحيد ، والعلوم الدينية والمدنية والاجتماعية . ويكنز حلولا لكثير من المعضلات التى تعترض حياة الفرد والأسرة والمجتمع . ويضع القواعد لاتحاد الجماعة ويأتى بما فيه حفظ اللغة وتعديلها على مقتضى حاجات العصر ويدعو إلى تعميم الإسلام فى جميع الأقطار مستدلاً على وجوب استماع دعوته بما لايقبل العقل السليم دحضه ، وعلى ضرورة اعتناق مذهب القومية العربية الجديد واتخاذ لغتها لساناً عربياً له .

فكتاب كهذا ، بهذه القيمة ، لا يمكن أن يكون نتيجة لمجهود رجل أمى لم يتلق شيئاً من العلوم ، اللهم إلا أن يكون وحياً إلهياً قد بلغه وأمر بتبليغه إلى سواه .

ولما لم يفعل هؤلاء ما قد تحداهم به صاحب الرسالة كما أثبتناه سابقاً بقوا على عجزهم جامدين إذن حقت نبوته كما أذاعها لأمته أولا ، وللعالم كله بعد ذلك وكان من الصادقين وثبت إعجازه بنظمه .

القرآن والعلم

— ١ —

اتجه بعض علماء عصرنا إلى القول بأن القرآن كتاب هداية وإرشاد فقط ، وليس فيه اتجاه علمى بمعنى أنه لا يحتوى على مبادئ وأسس علمية محتجين بأننا لا نستطيع أن نحيل طالب الطبيعة أو الكيمياء ، أو الاحياء أو الرياضة إلى القرآن كمرجع من مراجع تلك المواد ، وإذا حدث فإنه لا يجد فيه طلبته .

وأحب أن أقول لهؤلاء القائلين : إن القرآن كتاب علم وتعليم ، وهداية وإرشاد إلى ما يجب علمه وعمله ، فى هذه الحياة ، وما يترتب على صالح الأعمال وسيئها من الجزاء ، ففيه نظام لحياة الفرد والمجتمع ، وفيه نظام الأرض والسماء ، وكيف نستغلهما وننتفع بهما[1] (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب [2]) .

كما حوى القرآن أمهات المسائل ورءوسها ، أما التفصيلات الجزئية فيكشفها العلم بتقدمه و بذلك يثبت إعجاز القرآن .

---

(١) أنظر كتاب دعوة الاسلام الى العلم : ١٦ (٢) سورة آل عمران آية ١٩٠

فكما احتوى القرآن على مبادىء تصلح النفس البشرية وتزكيها، وتبلغ بها القمة فى السمو الروحى احتوى أيضا على أصول كلية توجه النظر إلى البحث والتنقيب ، فنهض الناس باحثين ومنقبين وكان ذلك بسبب دعوة القرآن الصريحة إلى العلم فى جميع آفاق الحياة الصالحة لخير بنى الإنسان ، ففيه الدعوة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الفرقة إلى الاتحاد ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهل إلى العلم . فمنه يعرف الانسان كيف يناقش ، وكيف يقيم الحجة ، وكيف يرى المسائل الكونية فى وضعها السليم ، كما دعا إلى استغلال ثروات الأرض وما أودعها الله من كنوز القوى ، كما دفع الاسلام طابع الأمية عن العرب وغيرهم ممن يدينون به دفعاً لاهوادة فيه : وقد بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحارب الجهل بعمل لم يسجل مثله لمصلح فى الأرض ، وذلك أنه جعل فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى وقعة بدر ـ وهى أول الوقائع الاسلامية ـ أن يعلمها نفراً من المسلمين .

(مافرطنا فى الكتاب من شىء[1]) ، (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين[2]) (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم[3]) .

---

(١) سورة الأنعام ٣٨ . (٢) سورة النحل ٨٩ .
(٣) سورة العنكبوت ٤٩ .

— ٢ —

القرآن أتى بأصول عامة لكل ما يحتاج إليه الانسان و يهمه معرفته لصلاح دينه ودنياه [١] .

قال الدكتور عبد العزيز اسماعيل « إن القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو غير ذلك ، ولكنه يشير أحيانا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم . . . . وإن لم تكن هذه الأشياء مدركة وقت نزوله إلا على طريق الاجمال والتأويل لعدم استبحار العلوم وقتذاك ؛ ولكن مع الترقى فى العلوم قلما يعمد إلى تأويله [٢] » .

ولقد توالت أقوال العلماء ومؤلفاتهم فى هذا الميدان فأشار صلاح الدين خشبه إلى ذلك فى كتابه « العلم والايمان » ، كذلك تكلم محمد محمود ابراهيم فى رسالته إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض عن كثير مما يتصل بهذا الموضوع ، ولا ننسى مجهود الأستاذ عبد الرزاق نوفل فى كتبه العديدة [٣]

---

(١) انظر مجلة الأزهر ج ١١ ، ١٢ لسنة ١٩٥٩ (مقال الدكتور السيد على السيد رئيس مجلس الدولة ص ١٠١٦ ومابعدها .

(٢) الإسلام والطب الحديث : ١٨ ولقد صدقت نبوءة الدكتور فكلما تقدم العلم كشف عن إعجاز القرآن لوجود الأسس العلمية فيه .

(٣) الله والعلم الحديث (ب) الإسلام والعلم الحديث ج القرآن والعلم الحديث .

كما لانسى قصة السموات والأرض التى كتبها الدكتوران محمد جمال الفندى ومحمد يوسف حسن .

فى القرآن أكثر من سبعمائة آية تتصل بدراسة الكون ، وتحوى الأصول العلمية ، والحقائق الكونية فى شتى مجالات العلوم من فلك وطبيعة وما وراء الطبيعة ، وطبقات الأرض ، والنبات والحيوان والأجنة والوراثة والصحة والتجارة والصناعة والاقتصاد .

كما فيه علم النحو حين قام جماعة بضبط كلماته فنشأ عندهم علم النحو واللغة ، كما درسه العلماء ليعرفوا سر إعجازه فنشأ علم البلاغة لأنهم وجدوا من ألفاظه مايدل على معنى أو معنيين أو أكثر .

كما أن فيه الآيات التى تعمل العقل وتشحذ الذهن ، وتقدم المقدمات لتستنتج النتائج (ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ومنها نشأ علم الأصول كما أن فيه من القصص والأخبار وآثار السابقين ما أتاح الفرصة لعلماء التاريخ أن يستنبطوا ويؤرخوا . ونشأ من بعض آياته حساب الفرائض إذ فيه الثمن والربع والنصف ، والسدس والثلث والثلثان .

كما نظر قوم إلى مافيه من آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأنواء ، فأوجدوا علم الميقات (تبارك[1] الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً ، وهو الذى جعل الليل والنهار

(١) سورة الفرقان آيتا ٦١، ٦٢ .

خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس[١]) الخ الآية ... وغير ذلك كثير ، كما لم ينس القرآن الانسان وصحته ، فأعلمنا ما يفيد نظام الصحة ، وحدوث الشفاء للجسد بعد مرضه فقال ، (يخرج[٢] من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

وأما الهندسة ففى قوله تعالى[٣] (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب) فإن هاتين الآيتين عنوان العلم المنسوب إلى إقليدس[٤] الذى يقول : إن الشكل المثلث أول الأشكال وهو أصلها ومنه تتركب بقية الأشكال ، وهو شكل اذا نصب فى الشمس كيفما نصب على أى ضلع كان من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رءوس زواياه ، فأمره الله سبحانه فى هاتين الآيتين لهؤلاء الجهنميين بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل تهكم ، لأنه لا ظل له يغنى من اللهب .

— ٣ —

ألم يكن فى القرآن أصول كثير من الصناعات وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها والتى تبنى على العلم والمعرفة ؟ نعم فيه معنى الحياكة

(١) سورة البقرة : ١٦٤ . (٢) سورة النحل : ٦٩ .
(٣) سورة المرسلات آيتا ٣٠ ، ٣١ .
(٤) أقليدس ويقال : أوقليدس : اسم رجل وضع علم الهيئة والهندسة والحساب ونقله إلى العربية الحجاج بن يوسف الكوفى : ملخصا من تاج العروس .

(وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[١]) ، وفيه الحدادة (آتونى زبر الحديد[٢]) والغزل (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا[٣]) والنسيج (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً[٤]) والفلاحة (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون[٥]) والبحرية (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها[٦]) والنحت والبناء (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين[٧]) وفيه غير ما ذكرت من معنى أمور البيع والشراء والكتابة كثير .

وأخيراً أقول : إن فى القرآن ألفاظا تعتبر مفاتيح وعنوانات لعلوم[٨] .

— ٤ —

والأكثر مما مضى أن من يراجع أسماء السور القرآنية تصيبه الدهشة ، ويستولى عليه العجب لغرابة تسمية بعضها ، والبحث عن الحكمة من هذه التسمية . فإذا ما مر القارىء بالرعد ، والذاريات ، والحديد ، والانفطار مثلا ، وقف حائراً متسائلا ما معنى هذه التسمية ؟ ، وما السر فى إختيارها ، حتى يستطيع التوفيق بين ما تعارف عليه الحاضر من الماضى لوجوده بوناً

---

(١) سورة الأعراف : ٢٢ (٢) سورة الكهف : ٩٦ (٣) سورة النحل : ٩٢ (٤) سورة العنكبوت : ٤١ (٥) سورة الواقعة آيتا ٦٣ ، ٦٤ (٦) سورة الكهف : ٧٩ (٧) سورة الحجر : ٨٢ . (٨) انظر بديع القرآن ٢٥٨ .

شاسعاً بين ما قصد إليه القرآن فى ترديد قوله تعالى[١] : (إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون) و بين ماتعارف عليه السلف فى قوله تعالى « إن يتبعون إلا الظن[٢] » ثم يقف مقيداً بقوله تعالى : (مافرطنا فى الكتاب من شىء) ثم يطأطىء الرأس خاشعاً أمام قوله تعالى[٣] : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) .

و إذا ما أعملنا الفكر فى معرفة مدلول هذه الألفاظ مطبقين قواعد اللغة العربية فى اشتقاقات الألفاظ نجد كلمة (الرعد) مشتقة من « رعد » ومنه ارتعد ، والرعدة : هى الرعشة التى تصيب الانسان إذا تعرض جسمه لصدمة مفاجئة من برد شديد ، أو مس كهربى تنقبض معه عضلات الجسم منعاً للكهربة من التسرب إلى الخارج وفى السورة الكثير من هذا المعنى .

و (الذاريات) من ذرته ، أو أذرته الريح تذروه إذراء بمعنى أطارته وأذهبته ، فالذاريات إذا وسائل تحطيم ، ويقوى هذا المعنى الآية التالية (فالحاملات وقرا) أى أن الذرو يحول الأجسام المتماسكة إلى الحالة الأثيرية التى تكونت منها ، فتحدث وقرا فى السمع ، ثم تستخدم هذه الانطلاقات الأثيرية فى تسيير السفن وغيرها . ولذلك كانت الآية الثالثة (فالجاريات يسرا) . وفى السورة كثير من المعانى العلمية التى لو أخذنا فى إحصائها ودراساتها لخرجنا عن تقديمناه للخواطر » ، وطال بنا الشوط .

(١) سورة يوسف : ٢ (٢) سورة النجم : ٢٣ (٣) سورة لقمان : ٢٧ .

أما سورة الحديد فعنوانها يجعل القارئ يتساءل لم خص الحديد من بين المعادن ؟ ولم لم يكن النحاس أو القصدير أو الرصاص مثلا ؟ .

لا شك أن الجواب يكون : إن تخصيص العنوان بالحديد يدل على أهمية بالغة تنكشف لنا عند فهم معنى قوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فالحديد يمتاز على جميع المعادن الأخرى بقابليته المغنطة، أو الشحن الحرارى وقابليته لكمية ضخمة من الالكترونات التى تكسبه المغناطيسية ، هذه الالكترونات إذا انطلقت مرة واحدة من حجم كبير من الحديد الممغطس أوجدت كهربية هائلة بها ينتفع الانسان ولا يمكن الحصول عليها إلا إذا وصل الحديد إلى درجة حرارية دون السيولة مباشرة ويمكن فى هذه الحالة إنطلاقها واحداث الأصوات والمخاطر التى يكون فيها البأس.

أما الانفطار : فمن فطر ، أو انفطر بمعنى: شق وانشق ، وانفطار السماء وانشقاقها : تصدعها . وفى اللغة : قلبى انفطر : أى تصدع ، وبالمعنى العلمى الدقيق : اختل اتزان ضرباته ، وانفطار السماء على ذلك : تصدع المركز المغناطيسى ، فيترتب على هذا المعنى الذى تضمنته الآية الثانية وهو انتثار الكواكب المرتبطة بجاذبية هذه السماء ، والآية الثالثة التى تعنى تسجير البحار وهو ماتراه الآن نتيجة تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية فى البحار أو فوقها من غليان ماء البحر وشدة حرارته .

وبعد فأقول كلمة حق أريد بها توضيح الحقيقة فى القرآن الكريم أقول : يجب أن يتجه العلماء إلى دراسة القرآن دراسة علمية ، وفحص ألفاظه فحصاً عميقاً ينصح عن معناه ، والبعد عن التواكل ، فإن العلم الحديث كلما تقدم كشف لنا عن أشياء موجودة فى القرآن تتضمنها ألفاظه وتحويها آياته وتشتمل عليها فواتح سوره . ولاشك فى أن ذلك الكشف يثبت لنا إعجاز القرآن ، وصدق رسالة نبينا الكريم محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

ويجب أن نبتعد بالقرآن عن الوقوف أمام الروايات والتفاسير السابقة ، والمعنى الظاهر للألفاظ صامتين .

والله أسأل أن يوفق علماء المسلمين إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم . كما أرجو أن يوفقهم إلى ما فى القرآن من إصلاح دنيوى وأخروى ومن الله التوفيق ،

فواتح السور القرآنية

— ١ —

جمع الله سبحانه فى كتابه العزيز مائة وأربعة عشرة سورة افتتح بعضها بما يفيد تحميده وتنزيهه وتسبيحه والثناء عليه ، والبعض الآخر افتتح بحروف التهجى ، وهذا فى تسع وعشرين سورة وهى ألم ، ألمص ، المر ، كهيعص ، طه ، طس ، طسم ، الجواميم كلها ، حمعسق ، ق ، ن ، ص .

وقد جمعت هذه السور من حروف التهجى أربعة عشر حرفا من ثمانية وعشرين ، ومن هذه السور ما ابتدئ بحرف واحد ، ومنها ما ابتدئ بحرفين ، أو بثلاثة ، أو بأربعة ، أو بخمسة .

اتجه العلماء إلى تفسير الفواتح المعجمة ومعرفة معناها ، وسلكوا فى تفسيرها طريقين :

الطريق الأول : التزم أصحابه الصمت ، ووكلوا علم معناها إلى الله — سبحانه وتعالى — لأنه مستور استأثر الله به ، معتمدين على قول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — : « لله فى كل كتاب سر وسره فى القرآن أوائل

السور[1] » ، وقول على ـ كرم الله وجهه ـ : « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى . . ، وقول الشعبى عندما سئل عن هذه الفواتح فقال : هى سر الله فلا تطلبوه ، وقوله : « إنها من المتشابه نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل[2] . .

وبهذا القول أخذ أبو بكر الأنبارى[3] .

ولكن المتكلمين لم يعجبهم هذا القول وأنكروه على أصحابه ، وقالوا : « لايجوز أن يرد فى كتاب الله ما لا يكون مفهوماً للخلق ، وقد قال الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال : (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وقال : (هدى للناس) و (هدى للمتقين) وقال : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا) .

ولا يمكن تدبر القرآن ، ولا الاستنباط منه ولا الهداية به ،

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٤ ، والجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٤ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١ : ١٧٣ ، والشعبى : هو عامر بن شراحيل الحميرى المتوفى سنة ١٠٩ هـ انظر ترجمته فى التهذيب .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١ : ١٥٤ .

ولا التصديق بما جاء فيه ، والسمع والطاعة لأوامره ، واجتناب نواهيه إلا إذا فهم .

كما أن من المعقول والحقيقة التى لا شك فيها أن القرآن لو ورد فيه ما لا يفهم لكان عبثا ، لأن المقصود من الكلام الإفهام ، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المخاطبة به سفهاً ، وذلك لا يليق بكلام الحكيم ، كما أن القرآن وقع التحدى به للعرب ، والعرب عجزت فعلا عن الإتيان بمثله ، ولا يمكن التحدى بشىء غير مفهوم .

— ٢ —

الطريق الثانى : إن لهذه الفواتح معان ويجب التأويل للوصول إليها ، وأصحاب هذا الطريق اختلفوا اختلافا كبيراً ، ووصلت أقوالهم إلى أكثر من عشرين رأياً ، ذكرت أشهرها على سبيل المثال .

١ — إنها أسماء للسور القرآنية ، ولهذا القول مال أكثر المتكلمين ، والخليل ، وسيبويه ، واستدلوا على ذلك بأن العرب سمت بهذه الحروف ، فسموا بـ « ل » والد حارثة بن لام الطائى ، وسموا النقد « عين» ، وقالوا جبل « قاف» وسموا الحوت « نونا » : وبهذا القول أخذ زيد بن أسلم ، وابن قتيبة الذى يقول : فإن كانت أسماء للسور فهى أعلام تدل على ما تدل

عليه الأسماء من أعيان الأشياء ، ويفرق بينها ، فإذا قال القائل : قرأت « المصّ » ، أو قرأت «صّ» ، أو قرأت «نّ» دل بذلك على ما قال ، كما يقول : لقيت محمداً ، وكلمت عبد الله ، فهى تدل بالاسمين على العينين ، وإن كان قد يقع بعضها فى وفاق مثل « حمّ » ، و« الّمّ » لعدة سور ، فإن الفصل يقع بأن تقول : «حم» السجدة ، و « الم » البقرة ، كما يقع الوفاق فى الأسماء فيفرق بينها بالإضافات ، وأسماء الآباء والكنى[1] .

٢ ـ إنها أسماء أو بعض أسماء أو إشارة إلى اسم الله تعالى ، فقد روى عن على ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول : يا كهيعص ، و يا حمعسق اغفرلى[2] وقال : سعيد بن جبير قوله : الر ، حم ، ن ، مجموعها يكوّن اسم الله تعالى ، ولكنا لانقدر على كيفية تركيبها فى الباقى[3] .

قال ابن عباس رضى الله عنه : الألف من « الم » إشارة إلى أنه تعالى أحد ، أول ، آخر ، أزلى ، واللام إشارة إلى أنه « لطيف » ، والميم إشارة إلى أنه ملك ، مجيد ، منان .

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن ٢٣١ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٥٥ .
(٢) انظر الاتقان للسيوطى ٢ : ١١ .
(٣) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٦ .

وقال فى « كهيعص » : إنه ثناء من الله تعالى على نفسه ، و « ك » تدل على كونه كافياً ، و « هـ » تدل على كونه هادياً ، و « ع » تدل على كونه عالما ، و « ص » على الصادق .

٣ ـ إن بعضها رمز لأسماء الله ، وبعضها لغيره فالألف من « الم » من اسم الله ، واللام من اسم جبريل ، والميم من اسم محمد ـ عليهما السلام ـ والمعنى على ذلك يكون: أنزل الله الكتاب على لسان جبريل إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٤ ـ إن هذه الفواتح للدلالة على أن القرآن مؤلف من تلك الحروف لأن الرسول لما تحدى العرب ـ وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ـ أن يأتوا بمثله عجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور ولو مفتريات فعجزوا ، فطلب منهم أخيراً الإتيان بأقصر سورة فعجزوا ، فأنزل الله هذه الحروف تنبيهاً على أن القرآن ليس إلا منها ، وأنتم قادرون عليها عارفون بها فلم كان عجزكم ؟ وبهذا الرأى أخذ المبرد ، وتبعه فيه كثير من الناس[1] ، كما أخذ به الفراء أيضاً[2] .

٥ ـ قيل إن هذه الحروف للتنبيه وإثارة العجب[3] ، لأن الكفار

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٥ .
(٣) المصدر نفسه ١ : ١٥٦

لما قالوا : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) واتفقوا على ذلك ، وبالغو فى اتفاقهم ، وتواصوا بالإعراض عنه أراد الله ـ وهو المحب خيرهم ، وصلاح أمرهم ـ أن يورد على سمعهم مالا يعرفونه ، فيجعلهم ينتبهون ويستيقظون ، فكانوا إذا سمعوا هذه الفواتح قالوا متعجبين : اسمعوا إلى كلام محمد ! فإذا أصغوا هجم القرآن عليهم ، فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً لانتفاعهم . فكانت هذه الفواتح كالأجراس أو الأصوات الغريبة التى تقرع أسماعهم فتدعوهم إلى الاستماع .

٦ — قيل إن هذه الحروف مدة أقوام ، ومقدار آجالهم ، فقد روى ابن عباس أن أبا ياسر بن أخطب ، وأخاه حُيىّ ، وكعب بن الأشرف مروا على الرسول ، وهو يتلو قوله تعالى : « الم » ـ البقرة ـ فاستحلفوه بالله ، أحق إنها أتتك من السماء هكذا ؟ فقال الرسول : نعم ، فقال حيىّ : إن كنت صادقاً فإنى لأعلم أجل هذه الأمة من السنين ، فكيف ندخل فى دين رجل دلّت هذه الحروف بحساب الجمّل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة ، فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال حُيىّ : فهل غير هذا ؟ فقال النبى : « المص » فقال حيىّ : هذا أكثر من الأول ، هذا مائة وإحدى وستون سنة ، فهل غير هذا ؟ فقال النبى : « الر » فقال حيىّ : هذا أكثر من الأول والثانى ، فنحن نشهد ـ إن كنت صادقا ـ ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال

النبي : نعم «الم» فقال حيّ : فنحن لهذا ، إنا من الذين يؤمنون ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ ، فقال أبو ياسر ، أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا أخبرونا عن ملك هذه الأمة ، ولم يبينوا أنه كم يكون ؟ ، فإن كان محمد صادقاً فيما يقول ، إنى لأراه يستجمع هذا كله ، فقام اليهود ، وقالوا : اشتبه علينا أمرك كله ، فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير ؟ فذلك قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب»[1]) .

٧ — وقيل : إن الله أودع السورة المفتتحة بفاتحة معجمة من الاحكام والقصص فى حروف فاتحتها ، ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى ، ثم يعود فيبينه فى السورة ليفقه الناس جميعاً[2] وقيل غير ذلك .

٨ — قيل : إنها حروف للدلالة على انقطاع كلام ، واستئناف كلام جديد ، وقال الكلبى : إنها قسم[3] ، وقيل : إنها حروف ثناء أثنى الله بها على نفسه ، أو للدلالة على أنه مؤلف لا قديم .

---

(١) مفاتيح الغيب ١ : ١٥٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٦ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٦ ويرى ابن قتيبة فى ذلك أن يكون الله أقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر جميعها فقال : « الم » وهو يريد جميع الحروف المقطعة كما يقول القائل : تعلمت ا ب ت ث وهو لا يريد تعلم هذه الأربعة فقط دون غيرها ولكنه اجتزأ بذكر بعضها وتقول قرأت الحمد وتريد الفاتحة . انظر تأويل مشكل القرآن ٢٣١ .

و ابن أبى الإصبع من بين هؤلاء العلماء القدامى تناول فواتح السور القرآنية المعجمة والمعربة بالتحليل والتفسير ، ولكن تناوله لها كان بعقلية البايغ والفلكى الرياضى ، فبين عددها وأقسامها وأصولها من الحروف ، واشتمال المعجمة منها على حروف المعجم فى النطق و إن كانت تتضمن أربعة عشر حرفا فى الخط ، و بين سبب اقتصار الفواتح المعجمة على تسع وعشرين فاتحة ، رابطا ذلك بمنازل القمر .

ويرى أن المعجمة أصل المعربة ، وأن أولها « الم » البقرة ، وأول المعربة « الحمد » أم الكتاب ، وكلا السورتين مفتتحة بالألف ، والألف شكل بسيط بالنسبة إلى سائر الحروف ، وسائر الحروف مركب بالنسبة إليها .

وقابل الألف من « الم » و « الحمد » بالواحد من الأعداد — على طريقة حساب الجمّل[1] — لأن الواحد أول وآخر ما يتبقى منها ، وهى صادرة عنه ، ومنتهية إليه ، ولما كانت الألف تقابل الواحد أشارت إلى

جدول حساب الجمل

ا	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ى	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠

ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

الصـــانع بدليل الالتزام ، لأنه تعالى مدبر ، ليست أوليته مسبوقة بشيء ، كما أن أولية الألف ليست مسبوقة بحرف من الحروف ، والواحد الذى تضمنته ليس مسبوقاً بعدد من الأعداد ، وهو سبحانه الباقى بعد كل شيء ، وموجد كل شيء ، ومعدم الأشياء ومفنيها ، ومميت الخلائق ومحييها .

ونستنتج من هذا أن الألف أشارت إلى اسم من أسماء الله تعالى .

واللام والميم اللتان هما بقية « الم » لهما من العدد سبعون وهى مبسوطة بحسب الأعداد ومن هذا العدد نستنبط الاستدلال على المصنوعات. إذ هو مشير إليها ، فسبعون : عشر سبعات ، وكل سبعة تشير إلى سبعة من العالم الأثيرى والعنصرى والمولد منه ، والظرف الزمانى والظرف المكانى وأبواب النيران ، وأنهار الجنان ، فقد أشار هذا العدد إلى كليات الدنيا والآخرة .

وقال أيضاً إن الفواتح المقررة أى المكونة من حرف واحد قسم ، ولذلك كان ما بعدها مجرورا بالقسم ، وهو معطوف عليها ، وحكم المعطوف على شيء فى الإعراب حكم ذلك الشيء فإنه قال « قٓ والقرآن المجيد » فعطف القرآن مجروراً على لفظة « ق » ولا معنى لجره إلا القسم فدل على أن لفظة « ق » قسم .

وكذلك « ص والقرآن ذى الذكر » ، ومثلها « ن والقلم » ، ثم

قابلها أيضاً بأعدادها التى تقابلها واستنتج ما تدل عليه القاف من الأعداد وما تشير إليه هذه الأسرار من أسماء الله ، فيكون المعنى أن الله تعالى أقسم بأسمائه التى أشار إليها ، وكذلك « ص » ولها من العدد تسعون ، وهى تدل على أمور العالم .

و « ن » لها من العدد خمسون وهى تدل على المصنوعات وبذلك نكون قد عرفنا ما تدل عليه الحروف الستة وهى الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والقاف ، والنون ، فإذا ما ركبنا « المص » عرفنا ما تدل عليه وكذلك نقيس على ذلك الفواتح التى تتركب من هذه الحروف ... الخ .

وأخيراً استنتجت أن ابن أبى الأصبع يرى أن بعض الفواتح بصورها وحروفها والعدد الذى يخصها مشيرة إلى الصانع والمصنوعات من جميع أحوال الدنيا والآخرة وعوالمها ، وكل موجود فيهما الآن ، وما وجد من قديم الزمن وما يوجد بعد فناء الأكوان .

والبعض الآخر من هذه الفواتح قسم أقسم الله به ، وهو بذلك يتفق مع بعض العلماء السابقين عليه فى معناها ، وإن اختلف معهم فى الطريقة التى توصل إلى هذا المعنى ، كما يرى أن هذه الفواتح إشارات إما إلى معانى أو إلى أعداد تدل على هذه المعانى ، ثم قارن هذه الاشارات التى تفيدها هذه الفواتح بما يماثلها من كلام الشعراء ، وأثبت البلاغة للقرآن فى فواتحه وإعجازه بإشاراته .

ولم أنس المحدثين وآراءهم فى هـذا للوضوع فالتقيت بالأستاذ المرحوم السيد رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فألفيته تـكلم عن الفواتح المعجمة فى مكانين من التفسير .

١ ـــ عند تفسيره « الم » البقرة [١] .

٢ عند تفسيره « المص »[٢] .

ولم يزد على القدماء أكثر من أنه تناول رأيين من أرائهم لعله مال إليهما فأخذ يوضحهما :

الأول : الرأى الذى يقول أصحابه : بأنها جيء بها للاشارة إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف للتدليل على إعجازه ، ويرى أن كثيراً من العلماء أخذوا به أمثال الزمخشرى والبيضاوى .

الثانى : الرأى الذى يقول أصحابه : إن هذه الحروف للتنبيه ، وإن كان القدماء لم يكشفوا لنا عن أسباب اختيارهم ، ولم يفصحوا عن مميزاته فالمرحوم السيد رشيد رضا أبان فضيلة هذا الرأى ، وميزه على غيره بما أضفاه عليه من الإيضاح فقال :

يجب قراءة هذه الحروف مقطعة بذكر أسمائها لا مسمياتها ، فنقول :

---

(١) تفسير المنار ١ : ١٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ٨ : ٢٩٦ .

ألف ، لام ، ميم ، ساكنة الأواخر لأنها غير داخلة فى تركيب الكلام فتعرب بالحركات ، وعدم إعرابها يرجع إلى أن افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتى بعدها مباشرة من وصف القرآن ، والإشارة إلى إعجازه ، وخاصة أن المكّى منه كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الاسلام ، ودعوة أهل الكتاب إليه ، وإقامته الحجج عليهم ، فى نظره كأداة الاستفتاح « ألا » و « هاء التنبيه » .

ويدلل على ذلك بأن الفواتح المعجمة كلها مكية ماعدا فاتحة البقرة ، وآل عمران ، والفواتح المكية كلها تذكر الكتاب إلا سورة مريم ، والعنكبوت والروم و « ن » وفى هذه السور المستثناه معان تتعلق بأثبات النبوة وصدق الكتاب .

فسورة مريم ذكرت فيها قصة مريم ، ويحيى ، وزكريا ، وذكر فيها أيضاً رسالة ابراهيم وموسى ، واسماعيل وادريس مبدوءاً كل منها بقوله : (واذكر فى الكتاب) ، والمراد به القرآن ، وذكر هذه القصص فى القرآن من دلائل الإعجاز ، لأن النبى — صلّى الله عليه وسلم — لم يكن يعرفها هو ولا قومه (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) كما ختمت سورة مريم بإبطال الشرك ، وإثبات التوحيد ، ونفى اتخاذ الله تعالى للولد ، وتقرير

عقيدة البعث والجزاء ، فهى فى ذلك بمعنى سائر السور التى كانت تتلى للدعوة الإسلامية .

وأما سورة العنكبوت والروم ، فكل منهما افتتحت بعد «الم» بذكر أهم الأمور المتعلقة بالدعوة وهى : إيذاء الأقوياء للضعفاء ، ومن ذلك يعرف ضعاف الإيمان من الأقوياء ، وفى سورة الروم أمر هام ، هو تغلب دولة الفرس على دولة الروم فى القتال ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وبأن الأمر سيدول ، وتغلب الروم الفرس ، وقد صدق الخبر ، وتم الوعد ، فكان كل منهما معجزة من أهم المعجزات ، ولو لم يحصل التنبيه لفات من أولها شىء على المستمع ولما فهم ما يأتى بعد .

وأما سورة « ن » فقد افتتحها وختمتها فى بيان تعظيم شأن الرسول صاحب الدعوة ، ودفع شبهة الجنون عنه ، وهى أول ما نزل من القرآن بعد سورة «العلق» فكانت الحال تدعو إلى هذا ، فإن رجلا أميًّا فقيرا وادعا لم يكن رئيس قوم ، ولا قائد جند ، ولا صاحب تأثير فى الشعب بخطابته ولا بشعره ، يدعى أن جميع البشر على ضلال الكفر ، وأنه مرسل من الله لهداية هؤلاء الخلق ، إن رجلا كهذا لمن اليسير أن يرمى بالجنون .

وزيادة فى الاستيعات والإيضاح التقيت بالأستاذ الشيخ أبى إسحاق إبراهيم اطفيش أحد العلماء المفسرين والزعماء الدينيين ، وممن لهم رأي

فى تفسير القرآن لأعرف رأيه فى فواتح السور المعجمة فتفضل قائلا :

إن أوائل السور فى كلام الله العزيز فيها من المعانى ما تحار فيه ألباب أساطين العلماء ، فمع جمعها لعلوم شتى ، فإن المفردات منها إذا نظرنا لكل سورة ابتدئت بحرف أو بحرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وهى معجمة ، فإننا نستطيع إدراك معنى تلك الحروف المفردة فى أول السورة بالمعانى التى مضت فى السورة التى قبلها[1] و بالتأمل فى هذه الحروف نرى أنها أسماء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2] . فنجد قوله تعالى : «ن ، والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » أن معنى الحرف « ن » : نور ، وأنه نداء مرخم ، ونور من أسمائه عليه السلام حيث يقول الله تعالى : « جاءكم من الله نور وكتاب مبين » وإن ذهب بعض المفسرين إلى معانى أخرى فى لفظ النور ، ولكن القسم والآية بعده المخاطب بها الرسول يجعلان النداء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما إذا رجعنا لسورة الملك قبلها فإننا نرى فى أثناء تلك السورة ما يشعر بتهديد المشركين للرسول وتكذيبهم ، وفيها من الآيات المقرعة لهم المهددة بالعذاب فى الدنيا والآخرة

---

(١) هذا على أن ترتيب السور القرآنية ترتيب إلهى بدليل قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » وقوله صلى الله عليه وسلم عند نزول كل آية « اجعلوها فى سورة كذا وبعد آية كذا » ، وعرض النبى عليه السلام القرآن على جبريل عليه السلام قبيل احتضاره مرتين وإقراره ذلك الترتيب .

(٢) روى السيوطى فى الإتقان ٢ : ١١ أن بعض هذه الفواتح يقال عنها : إنها أسماء للنبى « كص » و « يس » من غير ترخيم وهذا فى بعضها .

مما يجتمع لك من كل هذه المعانى العظيمة أن الخطاب للرسول بالنور ليشعره الله بالأنس وارتفاع المكانة .

وكذلك «ص» ومعناها: ياصادق ، و«طه» ومعناها: ياطاهر ياهادى.

و «الم» معناها : يا أيها المرسل ، و «الر» معناها : يا أيها الرسول ، و « المص » معناها : يا أيها المرسل الصادق .

وأما « حمعسق » فمعناها يتضح بعد قراءة سورة فصلت وما فيها من تهديدات متعددة لمشركى العرب عامة ، ولمشركى قريش خاصة ، ثم ختم السورة بقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق » الآية .

ولو علمنا أن السورة نزلت فى مكة ، وكان بعدها غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما كسر شوكة المشركين ، فإننا نجد معنى حروف « حمعسق » يتضح ويدل على المعنى الآتى : يا أحمد — وهو من أسمائه — صلى الله عليه وسلم — عذاب الله سيأتيهم قريبا ، فتكون الحاء والميم إشارة إلى اسم الرسول ، والعين إشارة إلى عذاب الله ، والسين لإتيان العذاب مستقبلا ، والقاف للدلالة على إتيانه قريبا .

ومعنى « كهيعص » بعد ما فى سورة الكهف من اشتداد الأمر على رسول الله ، وكثرة همومه من أمر المشركين ، الإشارة إلى أن كمال هذا الأمر يقينى ، فعليك بالصبر ، فتكون الكاف إشارة إلى « كماله » ، والهاء

إلى « هذا الأمر » والياء إلى « يقينى » فى قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وهو النصر قطعا . والعين إلى « عليك » بمعنى الزم ، والصاد إلى « الصبر » والمعنى الزم الصبر كما لزمه زكرياء عليه السلام .

وملاحظاتى على رأى أبى إسحاق هى أنه قال أولا : بأنها أسماء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا رأى قال به من سبقه ، ولكن الجديد فى رأيه أنه ربط فاتحة السورة بما تضمنته السورة التى قبلها ، ولاشك أن هذا الارتباط أدى إلى اختلاف تفسير هذه الحروف ، فمرة يجعلها إشارة إلى أسماء الرسول ، ومرة يخرج على رأيه ويقول إنها إشارة إلى أشياء أخر من أحوال الرسول ، كما أن العين وردت فى فاتحة « الشورى » وفاتحة « مريم » ففسرها بتفسيرين مختلفين إذ جعلها فى « حمعسق » تشير إلى عذاب الله ، وجعلها فى « كهيعص » تشير إلى كلمة « عليك » .

ويقول الأستاذ مالك بن نبى فى الظاهرة القرآنية[1] :

لقد حاول بعض المفسرين أن يصلوا فى موضوع هذه الآيات المغلقة إلى تفاسير مختلفة مبهمة . . . . . ولكن أكثرهم تعقلا واعتدالا هم أولئك الذين يقولون فى حال كهذه بكل تواضع ، والله أعلم .)

---

(١) ترجمة الأستاذ عبد الصبور شاهين ٢٧١ .

المستشرقون والفواتح

يرجع الفضل فى الكشف عن رأى بعض المستشرقين فى فواتح السور القرآنية المعجمة إلى الدكتور محمد غلاب فى بحثه الذى نشر تحت اسم « هذا هو الإسلام[1] » إذ تكلم فيه عن فواتح السور، وأبان فيه عن رأى القدماء من علماء المسلمين ، ورأى المستشرقين ، وكان حديثه عن آراء القدماء من علماء المسلمين قد طبع فى بحثنا ما يتعلق به ، ولم أر فيه جديدا زائدا عما ذكرته ، ولكن الجديد فى بحث الدكتور غلاب إيضاح رأى المستشرقين :

١ - يرى المستشرق « لوت » أن هذه الفواتح مدين بها محمد - صلى الله عليه وسلم - لتأثير أجنبى ، ويرجح لوت أنه تأثير يهودى ، ويدعم رأيه بقوله : « إن أكثر هذه الفواتح نزلت فى المدينة موطن اليهود » ولكن ما ذكره هذا المستشرق هراء وكذب وتضليل إذ أن الفواتح المعجمة تسع وعشرون نزل بمكة منها سبع وعشرون ، ومكة لم تكن موطنا لليهود.

٢ - ويرى المستشرق « نولديك » أن هذه الفواتح رموز لمجموعات الصحف التى كانت عند المسلمين الأولين، وليست من القرآن فى شىء ، فمثلا حرف الميم رمز لصحف المغيرة ، والهاء لصحف أبى هريرة ، والصاد لصحف سعد بن أبى وقاص ، والنون رمز لصحف عثمان .

---

(١) كتاب الشعب رقم ٦٥ ص ١٠٦ - ١١٠ .

وعلى ذلك فهى ليست سوى إشارات لملكية الصحف تركت فى موضعها بدافع النسيان، ثم صارت على مر الزمن قرآنا، ووافق «نولديك» على هذا : المستشرقان «هيرشفيلد» و«بوير». ولا شك أن هذا من أعجب الأعاجيب وأوضح الدلائل على العته والتعنت، كيف يستسيغ هؤلاء المستشرقون إضافة شىء إلى القرآن ليس منه ! ! وممن هذه الإضافة ؟ من حفظة القرآن وحملته وكتّابه ، ثم كيف ينسون رموزا وضعوها لصحفهم ثم تصبح من بعدهم قرآنا، وهم معاصرون للخلفاء والصحابة، والذين يقرءون القرآن صباحا ومساء فى صلاتهم وقيامهم ورواحهم وغدوهم ، ثم ينسون فيه ماليس منه .

٣ — يرى المستشرق «اسبرانجير» أن «طسم» لكى تفهم يجب أن تقلب لتكون رمزا لقوله تعالى : «لا يمسّه إلا المطهرون» ولا شك أن هذا الرأى عرفه القدماء من علماء المسلمين وقالوا إن بعض ألفاظ القرآن يجب أن تقلب لتفهم، وهذا لايؤدى إلى معرفة المعنى المراد ولا يطرد فى كل الفواتح المعجمة .

٤ — يرى المستشرق «بوير» أن فى كل فاتحة من فواتح السور المعجمة رابطا بما يذكر فى سورتها ، فالطاء مثلا من «طسم» تشير إلى الطور . والسين تشير إلى سيناء ، والميم تشير إلى موسى ، لأن هذه السورة تتحدث

عن موسى وطورسينا ، ولا أقول أكثر مما قاله الدكتور غلاب : « من أنه رأى يستوجب الضحك حتى فى الأوقات التى يتعذّر فيها الضحك ويعز الابتسام » لأن هذا الرأى لو صح اعتباره فى فاتحة سورة القصص لا يصح فى غيرها لأنه لا ينطبق عليها .

٥ — المستشرق « بلاشير » يرى الرجوع إلى نظريات المسلمين وآرائهم فى هذه الفواتح ويفضل قول من قال : إن هذه الفواتح اختصارات لأسماء الله ، ثم يرى أن أفضل العلماء من رأى أن العبث فى محاولة سبر أغوار هذه الفواتح .

ولما كنت أعلم أن أستاذنا المستشار رافع محمد رافع صاحب اتجاه فى تفسير القرآن وتخريج بعض آياته وتأويل المشكل منها لجأت إليه أستطلع رأيه فى هذه الفواتح المعجمة فتفضل قائلا :

إن هذه الفواتح تدل على أمرين :

١ — أن القرآن ركب من هذه الحروف ، وأنه سبحانه قادر على التكلم والإفهام بالحروف المفردة كالتكلم والإفهام بالجمل والعبارات ، فإن الكلمات « نَ » و « قَ » و « صَ » وإن كانت حروفا مفردة إلا أنها يجوز بها ما يجوز بالآيات الطويلة المركبة من الجمل العديدة ، فتجزىء فى الصلاة ، وتسمى آية قرآنية ، وهذا لإشعار القارئ بأن هذا الكلام غير عادى فلا تعيه إلا قلوب طاهرة .

٢ — الفواتح المعجمة المركبة من حروف « الم » « الر » « المص » « كهيعص » حروفها إشارات إلى أسماء الله أو لغيره ، فالكاف من فاتحة « كهيعص » إشارة إلى اسم الله، ومعناها : كاف ؛ «أليس الله بكاف عبده» و « ها » ضمير يعود إلى اسم الله و « يا » للنداء ، و « ع » إشارة لله بمعنى الواحد ، وذلك عين التوحيد ، و « ص » للصادق والمعنى الإجمالى للفاتحة على هذا هو « الكافى الواحد ياصادق »

ولا شك أن الرأى الثانى هو ما أشار إليه بعض السابقين غير أن الأستاذ رافع عمم فى قوله : بإشاراتها إلى اسماء مطلقة لله ولغيره ، والجديد فى رأيه أنها للدلالة على أن الإبانة بالحرف الواحد مع الإفهام كالإبانة بالجملة والعبارات ويجوز بها ما يجوز بالآيات الطويلة .

وبعد أن ألقيت القلم ، وانتهيت من هذا الموضوع أخبرنى أستاذى الجليل محمد أحمد برانق كبير مفتشى اللغة العربية بالتعليم الإعدادى بوزارة التربية والتعليم أنه قرأ رسالة لأحد علماء الهند فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يخبرنى عن اسم الرسالة ، أو اسم مؤلفها فوقعت فى حيرة شديدة ، وزاد فى حيرتى أن أخبرنى أنه أخذ نسخة من هذه الرسالة من السيد الدكتور أحمد أحمد موسى طبيب الأسنان ، فذهبت إلى الطبيب فى عيادته أسأله علاجا لهذه المشكلة ، فكان ألمى كبيرا إذ وجدته مريضا وملازما لفراشه فى منزله فاتصلت به ، فتفضل مشكورا وأعطانى مفتاح مكتبته ، وترك لى حرية البحث

عن هذه الرسالة ، وبعد بحث طويل فى المكتبة لم أعثر على شىء ، و بعد أن منّ الله عليه بالشفاء وعاد إلى عيادته قابلته ، فرأيت فيه طبيبا للنفوس والعقول والأجساد ، وأظهر أسفه الشديد لعدم العثور على هذه الرسالة ، ثم وقفت طويلا وطال معى وقوف المطبعة لأنى لا أريد أن أغمط مؤلفا فى هذا الموضوع حقه أو جهده، ثم أعدت البحث عن اسم المؤلف أو اسم الرسالة حتى التقيت بزميلى الأستاذ فؤاد السيد أمين مخطوطات دار الكتب المصرية فأخبرنى أنه يتذكر أن أحد العلماء كتب فى هذا الموضوع، وعن رسالة هذا العالم الهندى بالذات فى مجلة رسالة الإسلام، فأسرعت بالاتصال بأستاذى الكبير الشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة ورئيس تحرير المجلة، فأحالنى إلى أستاذى الكبير عبد العزيز عيسى مراقب اللغة العربية بالجامعة الأزهرية ومدير إدارة المجلة فاتصلت بسيادته فأخبرنى أن الذى كتب فى هذا هو الأستاذ الكبير عبد الوهاب حمودة ، ولكنه لا يعرف فى أى عدد كتب ، ووعدنى بأنه سيرسل إلىّ فهرس المجلة عن طريق البريد ، ولكنى خفت من طول المدة ، فأسرعت بالاتصال بأستاذى الكبير عبد الوهاب حمودة فى منزله ، فتفضل مشكورا وأخبرنى بأنه كتب فى هذا الموضوع ، والكتابة فى سنة ١٩٥٩ ، ولكن لم يخبرنى فأسرعت بإحضار العددين اللذين صدرا من المجلة فى هذا العام، وتصفحتهما، فوجدت الموضوع فى العدد الثانى، فقرأت المقال ، وعند انتهائى منه فوجئت بأن المقال بقية ستأتى فى العدد القادم ، فانتظرت

وكان انتظارى قليلا لأن العدد كان قريب الظهور إذ كنت فى آخر الأشهر الثلاثة التى يصدر فيها العدد ، وبعد ظهور العدد الثالث وجدت فيه موجزا لرأى الأستاذ العالم محمد الهندى ، والأستاذ الكاتب أجل كتابة الرأى الذى يفضله إلى العدد القادم أى الرابع من سنة ١٩٥٩ . وبعد تقدطال الانتظار فأنهيت الموضوع بذكر رأى الأستاذ العالم الهندى . وما قصدت من هذا الذى سردته إلا الإبانة عن مدى الجهد الذى يلاقيه المؤلفون والمحققون حتى يعطوا كل ذى حق حقه .

وبعد أن قرأت المقالين[1] اللذين كتبهما الأستاذ عبد الوهاب حمودة وعرض فيهما رأى الأستاذ محمد على الهندى استخلصت منهما الآتى :

١ — أن العالم الهندى يخطّىء الأستاذ نصوح طاهر الفلسطينى فى رأيه الذى يقول فيه :

إن لهذه الحروف قيماً عددية على حساب الجُمل تدل على عدد آيات السور المفتتحة بها هذه الفواتح بل رماه بالجرأة على القرآن ، وفعله مالم يفعله أعداء الإسلام ، إذ غيّر الأستاذ نصوح عدد آيات بعض السور لتتفق فى عددها مع رأيه ولا شك — إن كان هذا حقا — فإنها جرأة ما بعدها جرأة .

و إن كان بعض العلماء يفسر هذه الفواتح بالطريقة التى فسر بها الأستاذ

---

(١) انظر العددين: الثانى والثالث من مجلة رسالة الإسلام لسنة ١٩٥٩ م

نصوح — وابن أبي الاصبع واحدمنهم — إلا أنهم لم يقصدوا إلى ما قصده الأستاذ نصوح ، فابن أبي الاصبع دلل بهذه الطريقة على الصانع والمصنوعات واستنتج منها المعجزات المعجزات بأدلة علمية : نقلية وعقلية ، وبذلك يدخل تحت قول الأستاذ محمد الهندى « وإذا صح هذا الرأى وصدق التأويل لكان بلا شك تفسيرا مقنعا » .

٢ — أنه عرض لرأى السابقين و تأويلاتهم وتفسيراتهم، والدلالة على صحة استعمال الحروف المقطعة فى اللغة العربية ، فليس بدعا أن تنهج اللغة العربية منهج اللغات الأخرى فى استعمال الحروف المقطعة مع إفادتها .

ثم أبطل رأى القائلين بأن هذه الفواتح سر استأثر الله بعلمه ، ثم وافق القائلين من القدماء بتأويلها ، وذكر رأى القائلين بأنها أسماء للسور التى افتتحت بها ، وأرجعه إلى ابن عباس ومن تبعه .

٣ — إبراز الرأى الذى ارتضاه فى معنى هذه الفواتح وتفسيرها ، فقد قسم هذه الفواتح مرة بحسب حروفها ، ومرة بحسب موضع نزولها ، فجعل منها فواتح اتحدت فى حروف فواتحها ، وإلى فواتح اختلفت فواتحها فى الحروف ، كما قسمها إلى مدنية ومكية ، و بناء على هذه التقسيمات تكلم على معانيها وتفسيراتها وجعلها كمجموعات :

فالمجموعة التى ابتدأت فواتحهـــا بـ « الم » جعلها اختصارا

لـكلمات ، ومعناها : (أنا الله عالم) فالألف أول حرف من كلمة (أنا) ، واللام وسط كلمة الله ، والميم آخر حرف من كلمة عالم ، ثم يخرج من هذا التأويل إلى أنها إشارات أشير بها إلى معان ، فالـكلمات : أنا الله عالم تشير إلى التنبؤ بانتصار الإسلام ، ثم « المـص » تشير إلى مبدأ التنبؤ بالانتصار و « المـر » تشير إلى ما أشارت إليه « الـم » والراء إما من الفعل « رأى » ويكون المعنى : أنا الله أرى كل شيء يصنع معك ، وأطلع على كل أفعال خصومك ، وإما من الـكلمة « راء » اسم فاعل من رأى والمعنى : سأنزل من العقاب بأعدائك ما يستحقون .

والمجموعة التى تبدأ بـ « حـم » نزلت بعد أن ذاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمرّين من اضطهادات المشركين وإيذائهم فهى تدل كما نقل عن ابن عباس — على صفتين من صفات الله تعالى عرف بهما ، وهما : الرحمن الرحيم ، يشير بذلك إلى أنه على الرغم من إيذائهم وسوء أفعالهم فإنه فى معاملتهم رحيم .

والمجموعة التى تبدأ بـ « طـس » تشير إلى طور سينا ـ طا ـ سين ـ وهو الجبل الذى تلقى عليه موسى الوحى ، « والميم » من « طـسم » تشير إلى موسى ، وعلى « هذا يكون كل ذلك تلميحا إلى مشابهة الوحى الذى نزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بالوحى الذى نزل على موسى بجبل سينا ؛ وأيد ذلك بأن موضوع هذه السور تغلب عليه قصة موسى ، وأكدت المشابهة فى سورة القصص .

مجموعة الفواتح التى ركبت من خمسة أحرف ، وهى فاتحتان : « كهيعص » فاتحة « مريم » وحروفها تشير إلى صفات الله تعالى ، فالكاف تشير إلى الكبير أو الكافى ، و « ه » تشير إلى الهادى و « ى » إلى يمين أى منعم ، و « ع » إلى عالم و « ص » إلى صادق .

أما فاتحة « الشورى » ـ حمعسق ـ فإن الجزء الأول منها هو « حم » يشير إلى ما أشار إليه قبل ذلك والعين ، والسين ، والقاف ، تشير إلى وصفه تعالى بأنه عالم ، سميع ، قادر .

المجموعة التى افتتحت بحرف واحد وهى : « ن » و « ق » و « ص »

فأما « ق » فتشير إلى ما أشارت إليه فى فاتحة « حمعسق » و « ص » تشير إلى ما أشارت إليه الصاد فى فاتحة « كهيعص » و « أما « ن » فهى أول الفواتح المعجمة إذ هى من أوائل السور المعجمة المكية ومعنى (ن ، والقلم وما يسطرون) أى الدواة والقلم اللذان بهما يتوصل إلى الكتابة ، فالحرف « ن » له معنيان فى اللغة ، وهما : الدواة ، والحوت إلا أن السياق ، وذكر القلم بعد « ن » مما يساعد على تفضيل الرأى القائل بأن المراد من ذلك الحرف إنما هو الدواة .

ولا شك أن هذا التفسير الذى أراده السيد محمد على الهندى لهذه الفواتح مما يدلل على إباحة التأويل ، وأن هذه الحروف قد استعملت للدلالة على

كلمات من مدلولاتها ، ولا أود مناقشته لأن ما أتى به ، من التأويل ليس جديدا إلا فى بعض المعانى لبعض الحروف .

والكلمة الأخيرة التى أود أن أقولها : إن هذه الفواتح لم نصل بعد إلى حقيقتها وإن كنت أفضل الرأى الذى يقول : إنها للتنبيه وخاصة أن أغلب هذه الفواتح نزلت فى مكة وتكاتف المشركون على معارضة القرآن واللغو عند سماعه حتى لا يخترق آذانهم إلى قلوبهم ، فيتأثروا به ويؤمنوا بإعجازه ، فهم فى حاجة إلى تنبيه حتى لا يفوتهم منه شىء ، وإن كانت هذه الفواتح غير ما ألفنا وألف العرب القدماء من أدوات التنبيه .

وأخيرا بل أولا أقدّم إلى الذين سألتهم فأجابونى ، واسترشدت بهم فأرشدونى ، وأتعبتهم فأراحونى جزيل شكرى ، وإلى الله أكل كفاء ما قدموا ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

كتاب الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح

موضوعه :

أما موضوع هذا الكتاب فهو تفسير فواتح السور القرآنية ، وتعريف المعجمة منها والمعربة ، وأعدادها المنقسمة إليها، وكشف أسرارها ، وإيضاح خصائصها ، وإظهار أشكالها ومبانيها ، والاستدلال بها على الصانع الحكيم ، والمصنوعات الكليات والجزئيات، البسائط والمركبات ، واستنتاج الدلائل الواضحة على إعجاز القرآن بفواتحه لا بنظمه وبلاغته فحسب ، لأن ابن أبى الإصبع يرى أن إعجاز القرآن كما يكون بالجمل والعبارات البليغة ، يكون بالمفردات أيضا ، لأنه ينتظم منها إعجاز يحصل به الاستدلال القاطع للمنازع عند الجدال ، وهذا هو سر الإعجاز فيه ، لأن العادة جرت أن يكون الإعجاز فى الجمل وائتلافها ومعانيها لا فى المفردات .

منهجه :

وانتهج المؤلف فى الكتاب منهجا علميا مبوبا ومفصلا ، فقسمه إلى ثلاثة أركان وكل ركن إلى بابين ، وانتهى إلى أن الفواتح المعجمة أصل المعربة ، ويجب تقديم الأصل ، والمعجمة تدل

على أن الله واحد من كل وجـــه ، وأنه موصوف بصفات الجلال وسمات الكمال ، وأنه صانع العالم بطريق دلالة التضمن والالتزام ، وانتهى إلى أن الفواتح إشارات أيضا ، ومن هنا كانت بلاغتها ، وقارن بينها وبين الإشارات فى شعر الفحول ، كما سلك المؤلف فى تأدية هذه المعانى الأسلوب العلمى الذى يطغى فيه ذوق العالم على ذوق الأديب ، اللهم إلا فى القليل النادر فانه يلتزم الأسلوب العلمى الأدبى للإفادة والتأثير وذلك عند مقارنته بعض الفواتح ببعض الأبيات كقوله تعليقا على قول امرىء القيس :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فإن امرأ القيس أراد أن يصف هذه المرأة برقة البشرة والنعمة ، فنفى عنها مايوجب الشظف والخشونة للأجسام من الامتهان والخدمة ومباشرة الأعمال ، فذكر مايدل على أنها مخدومة ، لها من يكفيها أمر حاجتها ومهامها ليكون ذلك دليلا على ما أراد من وصفها باين البشرة وإفراط النعمة ، ثم عدل عن الألفاظ الموضوعة لهذه المعانى إلى ألفاظ هى أردافها وتوابعها مثل قوله « نئوم الضحى » فإن نومها إلى الضحى يدل على أن عندها من يكفيها أمر بيتها ومهام أمرها ، وزاد ذلك إيضاحا بقوله : « لم تنتطق عن تفضل » . أى لم تشد نطاقها فى وسطها من فوق شعارها الذى تنام فيه ، كما يفعل من يريد أن يعمل عملا ، وإنما عدل عن اللفظ الخاص إلى هذا اللفظ لما فيه من الزيادة على المعنى المراد ، فإن فى وصفها بكثرة النوم وشهوته مايدل

على الصبا ، وانها فى سن النمو ، فإن كثرة النوم غالبا من غلبة الدم على أصحاب هذه السن ، وإذا كان الدم متوفرا غالبا على سائر الأخلاط دل على قرب المزاج من الاعتدال ، لأن طبعه طبع الحياة وهو الحرارة والرطوبة ويكون اللون به مشرقا ، والماء فى الوجه كثيرا ، هذا إلى مايدل عليه نومها من كونها منعمة مترفة لها من يخدمها ، ولاسيما وقد قدم قبل ذكر النوم ما يدل على الثروة والتحبب للرجال ، واستمالة القلوب بالطيب الذى لم يرض لها منه إلا أعلاه ، ووصفه بالكثرة إلى أن يبقى فتيته على فراشها نحوة من بعدما تصعّد منه ولحق بجسمها ، وبقى فى شعرها و بشرتها . فجمع لها فى صدر البيت معظم الأوصاف المستحسنة ، وأثبت لها ما أثبت من الخصوصية والسعادة ، وأنها ممن يسمح لها بذلك لكونها معشقة محبوبة ، ونفى عنها فى العجز كل الأوصاف التى تدل على أنها مطرحة ممتهنة . . . . . ثم فاضل بين معنى ذلك البيت ومعنى قوله سبحانه وتعالى : « ص » فإنك تجد هذا الحرف قد دل على جميع العوالم مشيرا بعدده إليها ، فجمع مدلوله كل موجود سوى الله تعالى من الأكوان والمكان والزمان ، وما يلزم من ذكر هذه الأشياء من الصفات والأسماء والحوادث الكائنة والأمور الغائبة مع أنه حرف واحد فى الخط وثلاثة فى النطق .

والذى لحظته على المؤلف فى دراسة هـــذه الفواتح أنه جارى علماء عصره فى دراستها ومقابلة الحروف بالأرقام — بالطريقة الحسابية

المعروفة — حساب الجمّل — ودلالة هذه الأرقام على الأفلاك وأبراجها . وتلك طريقة أملاها عليه عصره فى دراسة الأفلاك ، ثم تغيرت بتقدم الزمان وأصبحنا نرى الأفلاك والكواكب تدرس بطرق أخرى مبنية على أسس علمية سليمة .

أصل الكتاب

لم أجد — كما سبق أن قلت — من هذا الكتاب سوى نسخة واحدة اعتبرتها أمّا لتحقيقه ، وهى وإن وجد فى آخرها هذا النص « نجزت مقابلته بمدينة قوص فى خامس رجب الفرد سنة عشرين وسبعمائه » إلا أنى أرجح أن خطها وورقها ومدادها حديث لايقل عن القرن العاشر الهجرى ، والنسخة مخطوطة ومحفوظة بالمكتبة الزكية تحت رقم ٤١٥ ، والصفحة الأولى محلاة ومجدولة ، وكتب عليها عنوان الكتاب « كتاب الخواطر السوانح فى كشف أسرار الفواتح تأليف العالم الأوحد الفاضل الصدر الكامل زكى الدين عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله » عرف بابن أبى الإصبع « رحمه الله » توفى سنة ٦٥٤ هجرية ، كما يوجد على الصفحة الأولى خاتم كتب فيه « وزارة الأوقاف — الخزانة الزكية » .

وتقع هذه النسخة فى ست وسبعين صفحة ومسطرتها ثمانية عشر سطرا ، وبأثنائها تعليقات وبآخر صفحاتها تعقيبات .

ومع كثرة التحريف والتصحيف فى الأصل ، فقد حاولت جهد طاقتى أن

أعالج مافيه من تحريف وتصحيف ، وحذف وزيادة ، وإعجام وإهمال ، بالرجوع إلى المصادر المختلفة وكتب التفسير ودواوين الشعراء وكتب البلاغة وأزلت الغموض الذى يلابس النص ، كما أثبت فى تقديمى ما فى هذا الكتاب من مبادىء وآراء للمؤلف ومدى مقدار اعتماده على السابقين فى تصحيح النصوص مبينا مدى أصالتها . سائلا الله التوفيق والسداد وهو حسبى ونعم الوكيل .

كتاب الخواطر السوانح

فى كشف أسرار الفواتح

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله واهبِ العقول ، ومُميّز الفاضل من المفضول ، والصلاة على السيد الرسول ، وعلى آله الذين يدْرَك بمحبتهم السُّول ، صلاةً تبلّغنا من شفاعته المأمول ، وبعد فإني لما أظلّني شهرُ رمضان المعظم ـ أعظم الله تعالى علينامن بركاته ، ورزقنا العملَ فيه بمرضاتِه ـ رغبت فى أن أشتغلَ بما يشغلنى عن الرّفث ، ويلْهينى عن الدّنس والخَبَث ، ففكرت فى فصاحة القرآن العزيز وبلاغته ، وجوامع كلمه وفوائده ، وغرابة أسلوبه ونظمه ، وعجائب معانيه وبديعه ، وعذوبة ألفاظه ، وسهولة تأليفه ، وحلاوة مَوقِعِه وطلاوة رَوْنقه وتمكين مقاطعه ، وبراعةِ فواصله ، وكثرة عجائبه ، وإن كلّ من ألّف فى إعجازه تأليفا ، أوصنّف فى بلاغته تصنيفا ، لم تُوَفّ عبارتُه بوصفه ، ولم تقم ألفاظه بتأدية معانى نعته ، ولا ذهب فى استخراج الإعجاز وتقريره مذهبا تقوم به الحجّة عند تحريره بحَسَب ما وقع به التحدّى ، وقطع من ذلك التصدّى ، لأن الرسولَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحدّى كافّة العرب أن يأتوا بسورة من مثله حتى ظهر تعجيز من اجتمعوا على قوّة عارضته ، ورجاحة عقله ، ونزل القرآن بما أتى به فى معارضة «الكوثر» (١) ، وعجزه عن

---

(١) يقصد سورة الكوثر .

إكمال المعارضة مع مافى السورة من ، السهولة والقصر ، حيث قال سبحانه : (إنه فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ، وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ[1]) وأعوزته الفقر ، فقال القادر على ما لا تقدر عليه البشر (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ، لا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ، لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) حتى دعت هذه القضية بعضَ الناس إلى القول بالصرفه ، والتزم آخرون مناقضة هذا المذهب وخُلْفَه[2]، ولكل على مذهبه دليل ، وسياقة الأدلة يلزم منها التطويل ، غير أنه سيأتى فى أثناء هذا الكتاب ، ما يرجح أحد المذهبين عند ذوى الألباب ، ولما رأيتُ المؤلفين فى هذا الشأن لم يذهبوا مذهبا يقوم بمثله على مخالفيهم البُرهان لكونهم بوّبوا تواليفهم أبوابا مترجمة بنعوتِ محاسن الكلام الذى سماه المتأخرون بالبديع ، وانتزعوا آيات تدخل محاسنها فى تلك الأبواب ، ولم يعدلوا إلى سورة بكمالها فيُظهروا إعجازَها بالنسبة إلى قصيدة فاضلة ، أو خطبة هائلة لتقطع حجة الزّنديق ، وتُبطلَ دعوى كلّ من خرج عن الطريق[3] ،

---

(١) المدثر من ١٨ — ٣٠ .
(٢) خلفه أى خلافه .
(٣) اتفق المؤلف فى هذه النظرية وهى نظرية المفاضلة بين الكلام شعرا ونثرا وإن اختلفت معانيه مع ابن الأثير انظر مقدمة الاستدراك له .

فإنا لو قال لنا بعضُ الزنادقة : إنه ما من قصيدة أو خطبة للعرب إلاّ ويندُر فيها البيتُ الطائل ، والمعنى الهائل ، فأىّ مزية لهذا الكلام العظيم على غيره من الكلام ؟ ، ولو سلكوا غيرَ طريقهم فى إظهار الإعجاز لما ورد عليهم هذا الدَّخَل (١) ، ولما توجه عليهم لسببه الملام ، أردت أن أتفرغ للكلام على بلاغة بعض السور ، وإظهار مافيها من البدائع والعِبَر ، وأماثل (٢) بينها وبين أعلى كلام العرب ، الذى اجتمع على تقديمه وتفضيله أهلُ الأدب ، وأقيس (٣) أعلى بلاغتها بأعلى بلاغته ، وأوسطها بأوسطه ، وما دون الأوسط منها بما دون الأوسط منه ، ليظهر رُجْحان الأعلى على الأعلى ، والأوسط على الأوسط ، وما بعد الأوسط على ما بعد الأوسط ، فصدَفنى (٤) عن ذلك مُهمّ أعظم من هذا المُهم ، وخطر لى خاطر يحصُل به الغرض الأتمّ ، وذلك أنى لحظتُ فواتح السُور ، أعنى : الكلمات المفردات ، لا أوائل السُّور من الآيات ، بل كلّ لفظة افتُتِحتْ بها سورةٌ دون ما بعدها من الكلمات ، كلفظة (الحمد) بمجردها من الفاتحة ، ولفظة (الم) بمجردها من البقرة . فرأيتُها يَنْتظم منها إعجاز يحصل به الاستدلال القاطع للمنازع عند الجدل ، هذا على أنها مفرداتٌ ، وإنما يقع الإعجاز

(١) الدخل بالتحريك : الفساد . (٢) أقارن وأفاضل .

(٣) فى الأصل : « اقتبس » وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

(٤) صدفنى : جعلنى أعرض .

بالجمل المؤلفات ، فكان هذا خارجا مخرجَ العَجَب العجاب ، واستنباطُ مِثْله فضيلة يَشهد بها ذووا الألباب[1] ، فلما وقع لى هذا المعنى استخرتُ الله تعالى واستعنت به على بلوغ جميع الآراب ، وبنيتُ هذا التأليف على ثلاثة أركان شرعتُ فيها ستةَ أبواب .

فالركنُ الأول : فى حصر الفواتح وأقسامِها ، وتعريفِ إعرابها وإعجامها ، وفيه بابان :

الأول : فى تعريف المعجمة وأعدادها المنقسمة . والثانى : فى تعريف المعربة وأعدادها البسيطة والمركبة .

والركن الثانى : فى كشف أسرارها ، وإيضاح خصائصها وإظهارها ، وفيه أيضا بابان :

الأول : فى كشف أسرار المعجمة ، وحُكمها ، وتبيين جُمَلها وقَسْمها .

والثانى : فى كشف أسرار المعرَبة ومعانيها ، والكلام على تقسيم أشكالها ومبانيها .

والركن الثالث : فى الاستدلال على كونها دالةٌ على الصانع والمصنوعات الكلّيات والجزئيّات ، البسائط والمركبات ، وما يتنخل عن ذلك من لمعجزات المعجّزات لأرباب البلاغات فى جميع الأوقات وفيه بابان :

---

(١) الالباب : العقول .

الأول : فى الاستدلال على الصانع والمصنوعات ، والثانى : فى استنباط المعجزات المعجّزات ، ووسَمْته « بالخواطر السوانح ، فى كشف أسرار الفواتح » والله بكرمه المسئول فى الإعانة على ما عزمتُ عليه ، والإثابة على ما نَحَوْتُ من هذا الغرض إليه ، إنه اللطيف الخبير ، الرءوف القدير .

الركن الأول

فى حصر الفواتح وأقسامها ، وتعريف إعرابها وإعجامها

وفيه بابان :

الباب الأول :

فى تعريف المعجمة وأعدادها المنقسمة .

اعلم أن الفواتح المُعجمة تسعٌ وعشرون فاتحة منقسمة خمسة أقسام بحسب وقوعها ، فإنها جاءت من حرف — على ترتيب العدد الطبيعىّ — إلى خمسة أحرف ، فالمفرداتُ منها ثلاثُ سور ، وأعنى بالمفردات كلّ فاتحة هى حرف واحد وهى :

صَ ، قَ ، نَ ، والثّنائيّات تسع سُور وهى : طٰهٰ ، طٰس يٰس والحواميم سوى الشّورى . والثّلاثيات ثلاثَ عشرة سورة ، وهى ثلاثة أضرب ضرب افتتح (بالم) وهو ستّ سوَر : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت

الروم ، لقمان ، السجدة ، وضربٌ افتتح (بآلر) وهو خمس سُور وهى : يونس ، هود ، يوسف ، ابراهيم ، الحجر ، وضرب افتتح (بطآسم) وهو سورتان: الشعراء ، القصص، والرباعيات سورتان وهما : (المآص) الأعراف و(المآر) الرعد ،والخماسيات أيضاً سورتان وهما (كهيعآص) (حمعآسق) وأصول هذه الفواتح التى تركبت صورها منها أربعة عشر حرفا من حروف المعجَم وهى على ترتيب وضعها : ا ح ر س ص ط ع ق ك ل م ن ه ى توالى منها ستة أحرف من القاف إلى الهاء فهى على ضربين : متجمّعة ، ومتفرقة فالمتجمّعة السّتة المتوالية ، والمتفرقة التى لم تتوال ، وجملة هذه الحروف هى وإن كانت وَفْقَ عدد النّصف من حروف المعُجَم على قسمين : قسم يتصحّف ، وقسم لا يتصحّف ، فما لا يتصحف ثلاثة أحرف . وهى: الألف والميم والهاء ، ومايتصحف أربعة أضرب : ضرب له صورتان، وهو اثنا عشر حرفا الدال ، والذال والراء و الزاى والصاد والضاد و الطاء والظاء والعين ، والغين ، والكاف، واللام ، وضرب له ثلاث صور وهو ستة أحرف، الجيم ، والحاء ، والخاء ، والفاء ، والقاف ، والواو ، وضرب له خمس صور وهو : خمسة أحرف : الباء ، والتاء ، والثاء ، والنون ، والياء .وضرب لا ينحصر صوَره كثرةً وهو حرفان : السين ، والشين فما لا يتصحّف موجود فى هذه الأحرف أعنى الحروف الأربعة عشر ، وما يتصحّف موجود فيها أيضاً بطريق التّصحيف ما خلا الدّال ، والذال لكن الدّال

التى هى أصل الذّال وإن لم توجد فى هذه الفواتح خطّا فهى موجودة فيها لفظاً لأنها منطوق بها فى ثلاث فواتح منها أحدها (المـّص) ، (كهيعـّص) ، (ص) والذال تصحف بالدال من ضرب ماله صورتان فقد تم استخراج جميع حروف المعجم الأصول من هذه الحروف ، وثبت أنها أصولها التى تفرّعت منها وظهرت عنها ، وإنما جاءت هذه الفواتح المعجمة التّسعة والعشرون عـــدد أصول حروف المعجم لكونها هى أصُول جميع الفواتح إذ القسم المعرب من الفواتح مركب من حروفها بالطريق التى أوضحناها ومصرّح بما كتب عنه من المعانى فكأن المعربة مفسّرة للمعجمة ، والتفسير فرع على المفسّر ولأن المعجمةَ بسيطة بالنسبة إلى المعرَبة ، والمعرَبة مركبة بالنسبة إليها ، والبسيطُ أصل المركّب والله أعلم .

الباب الثانى من الركن الأول

فى الفواتح المعربة

والفواتح المعربة خمس وثمانون فاتحة ، منقسمة أيضاً خمسة أقسام . كأقسام المعجمة ، : قسم مفتتَح بالخبر ، وقسم مفتتح بالاستخبار ، وقسم مفتتح بالقسَم ، وقسم مفتتح بالأمر .

فالمفتتح بالخبر خمسون سورة ، وهى على ضربين : ضرب مؤتلف

العَدد ، وضربٌ مختلف العدد ، وأعنى بالمؤتلف ما وَقعَت أقسامُه كلّها عدداً واحداً وهى الخماسيات ، والمختلف : ما اختلف عدد أقسامه ، فمنه الخماسىّ وغيره من السداسى والسّباعى لا غير ، وسيأتى معنى الاقتصار على هذه الأعداد الثلاثة وهى الخمسة ، والستة ، والسبعة ، وكون جميع الفواتح المُعْجمة والمعربة عدد صورها ، وعدد حروفها ، وما لحروفها من العدد الحسابىّ مجموعاً ومفرّقا لا يخرج عن هذه الأعداد الثلاثة ، وما السرّ فى ذلك إن شاء الله تعالى .

فالضربُ الخماسىّ من المفتتحات بالخبر أربعة أقسام :

ما افتتح بالتحميد وما افتتح بالتسبيح ، وما افتتح بنداء الأمة ، وما افتتح بنداء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فالمفتتح بالتحميد خمس سور وهى : الفاتحة . الأنعام . الكهف . سبأ . فاطر . والمفتتح بالتسبيح خمُس سور وهى : الحديد . الحشر الصّف . التغابن . والمفتتح بنداء الأمة خمُس سور وهى : النساء . المائدة الحج . الحجرات . الممتحنة . والمفتتح بنداء الرسول ـ عليه السلام ـ خمُس سور وهى : الأحزاب . الطلاق . التحريم . المزمل . المدثر .

والضرب المختلف عدد الأقسام ثلاثون سورة منقسمة خمسة أقسام أيضاً ، وهى على ضربين : ما صدر باسم ، وما صدر بفعل فالمصدّر بالاسم قسمان : قسم صدّر باسم مجرد وهو ثلاث عشرة سورة

وهى : التوبة . النور . الزمر . محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفتح . الرحمن . سبحان[1] . الحاقة . نوح ـ عليه السلام ـ المطففين . القدر . القارعة . الهمزة . الكوثر . وما صدر باسم مجرور وهو سورة واحدة وهى : قريش .

فالمصدر بالماضى صنفان : مُعلم ، ومُغفل ، فالمعلم سورتان : وهما : المؤمنون ، المجادلة . والمغفل عشر سور وهى : النحل . بنى إسرائيل[1] . الأنبياء . الفرقان . القمر . الملك . المعارج . عبس . التكاثر . أبى لهب .

والمصدر بالمضارع صنفان : موجَب ، ومنفى ، فالموجب : سورة واحدة وهى : الأنفال . والمنفى ثلاث سور وهى : القيامة . البلد . المشركين[2] والمفتتحات بالاستخبار ستة أقسام وهى على ضربين : ضرب صدّر بحرف الاستفهام ، وضرب بجارّ ومجرور فالمصدّر بحرف الاستفهام خمس سور الإنسان . الغاشية : اليسر[3] . الفيل . الماعون . والمصدر بالمجرور سورة واحدة وهى : النبأ . ولما كان الخبر أصل الاستخبار ، والاستخبار فرع عليه وكانت الخمسة أصل الستة ، والستة فرع عليها ، جاءت الخبرية خماسية الأقسام والاستخبارية سداسية الأقسام وتقدمت الخبرية على الاستخبارية .

---

(١) سورة الإسراء .
(٢) هى سورة « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين » . الخ .
(٣) هى سورة ألم نشرح .

والمفتحات بالقَسم خمس عشرة سورة وهى على خمسةِ أضرب :ضرب أقسم فيه سبحانه بالملائكة ، وضرب أقسم فيه بالأفلاك ، وضرب أقسم فيه بلوازم الأفلاك ، وضرب أقسم فيه بالعناصر ، وضرب أقسم فيه بالمولّدات أعنى الحيوانات والنباتات والجمادات ، فالضرب المُقسم فيه بالملائكة سورة واحدةوهى:والصافات . والضرب المقسم فيه بالأفلاك سورتان وهما : البروج والطارق . والضّرب المقسم فيه بلوازم الأفلاك ستّ سور وهى : والنجم والفجر · والشمس . والليل : والضحى . والعصر . والضّرب المقسمّ فيه بالعناصر قسمان : قسم أقسم فيه سبحانه بالهواء ، وقسم أقسم فيه بالتربة ، فالمقسم الذىأقسم فيه بالهواء سورتان ، وهما : والمرسلات . والذاريات . والمقسم الذى أقسم فيه بالتربة سورة واحدة : وهى والطور . والحكمة فى ذكر هذين العنصرين الآخرين أن جميع المولّدات من العناصر لا تخرج عن لطيف وكثيف ، فكثافة الكثيف من التراب ، ولطافة اللطيف من الهواء فكان ذكر هذين العنصرين مستلزما ذكر كل لطيف وكثيف ، فلأجل ذلك كان ذكرهما دون غيرهما مما تقتضيه البلاغة ، وأيضاً فإن طبيعة الهواء حارّة رَطْبة ، وطبيعة التراب باردة يابسة ، والحرارة والرطوبة طبعُ الحياة، والبرد واليبس طبيعةُ الموتُ فكأن ذكر هذين العنصرين يتضمّن ذكر الحياة والموت اللذين لا يعْرى الموجودُ عن أحدهما ، فتعين ذكرهما دون غيرهما .

والمقسم فيه بالمولدات على ثلاثة أضرب : ضرب أقسم سبحانه فيه

بالملائكة ، وضرب أقسم فيه بالأفلاك ، وضرب أقسم فيه بالعناصر ، وضرب أقسم فيه بالمولّدات أعنى : الحيوانات والنباتات والجمادات ، فالضرب المُقْسَم فيه بالملائكة سورة واحدة وهى و الصافات ، والضرب المقسم فيه بالأفلاك سورتان: وهما : البروج ، والطارق . والضرب المقسم فيه بلوازم الأفلاك ست سور وهى : والنجم ، والفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى، والعصر . والضرب المقسم فيه بالعناصر قسمان : قسم أقسم فيه سبحانه بالهواء، وقسم أقسم فيه بالتُّربة، فالمقسم فيه بالهواء سورتان وهما: والمرسلات، والذاريات . والمقسم فيه بالتربة سورة واحدة وهى : والطور . والحكمة فى ذكر هذين العنصرين دون العنصرين الآخرين أن جميع المولّدات من العناصر لا تخرج عن لطيف وكثيف ، فكثافة الكثيف من التراب ، ولطافة اللطيف من الهواء ، فكان ذكر هذين العنصرين مستلزما ذكر كل لطيف وكثيف ، فلأجل ذلك كان ذكرهما دون غيرهما مما تقتضيه البلاغة . وأيضا فإن طبيعة الهواء حارة رَطْبة ، وطبيعة التراب باردة يابسة ، والحرارة والرطوبة طبع الحياة ، والبرد واليُبْس طبيعة الموت ، فكان ذكر هذين العنصرين يتضمن ذكر الحياة والموت اللذين لا يَعْرَى الموجود عن أحدهما ، فتعين ذكرهما دون غيرهما .

والمقسم فيه بالمولّدات على ثلاثة أضرب: ضرب أقسم سبحانه فيه بالجماد وهو: سورة واحدة، وقد سبق ذكرها وهى : والطور . وضرب أقسم فيه

بالنبات وفيه سورة واحدة أيضا وهى : والتين . وضرب أقسم فيه بالحيوان وهو صنفان : صنف أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه بالحيوان الناطق ، وصنف أقسم فيه بالحيوان البهيم ، فالمقسم فيه بالناطق سورة واحدة وهى : والنازعات، والمقسم فيه بالبهيم سورة واحدة أيضاوهى : والعاديات . والمفتتحات بالشرط سبع سور وهى : على ضربين : ضرب ولى شرطه إسم ، وضرب ولى شرطه فعل، فالاسمية ثلاث سور وهى: التكوير، الانفطار ، الانشقاق . والفعلية أربع سور وهى : الواقعة ، المنافقون ، الزلزلة ، النصر ، والمفتتحات بالأمر سبع سور وهى قسمان : قسم مشتق من القول ، وقسم مشتق من غيره، فالمشتق من القول خمس سور وهى : الجن ، الكافرون ، الإخلاص ، الفلق ، الناس . والمشتق من غير القول سورتان سورة مشتقة من التسبيح ، وسورة مشتقة من القراءة وهما ، الأعلى ، والعلق .

فقد تبيّن لك أن جميع فواتح السّور القرآنية انقسمت قسمين : معجمة ومعربة، وكل من المعجمة والمعربة انقسم إلى خمسة أقسام . أما أقسام المعجمة فغير متشعّبة ، وأما أقسام المعربة فانشعبت إلى الخمسة والستة والسبعة ، ووقعت عند هذه الأعداد أعداد الثلاثة، فجاء فى الخمسة من المعربة قسما الخبر والقسم ، وجاء فى الستة قسم الاستخبار ، وجاء فى السبعة قسما الشرط والأمر ، وجاء ترتيب السّور الخبرية والاستخبارية والشرطية والأمر فى وقوعها موافقة للأعداد الثلاثة على ترتيب وقع الأعداد الثلاثة ذوات

الخمسة قبل ذوات الستة، وذوات الستة قبل ذوات السبعة وسأبين لك كما وعدتك شرح الحكمة فى اختصاصها بهذه الأعداد دون غيرها من موضعه إن شاء الله تعالى .

الركن الثانى

فى كشف أسرارها وإيضاح خصائصها وإظهارها

وفيه بابان :

الباب الأول :

فى كشف أسرار المعجمة وأعدادها المنقسمة .

اعلم أنّ مجىء الفواتح المعجمة تسعا وعشرين فاتحة، ليكون وفق عدد القمر ومنازله الثمانية والعشرين التى ينتقل فيها، فيتصل لسبب تنقله فى هذه المنازل بالدرارى والنيّر الأكبر ، فيكون الاتصال من جهات الاتصال الخمسة وهى ، التثليث والتربيع والتسديس والمقابلة والمقارنة علامة لحدوث الحوادث الأرضية بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مما يؤيد ذلك قول الله تعالى : « وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » فدل ذلك على أن طلوع النجوم وغروبها علامات لوقوع ما يقع من الحوادث والله أعلم .

ولما كان ذلك كذلك جاءت هذه الفواتح مشيرةً بعددها إلى عدد هذه الآيات، ومنبهة على قدرة خالق هذه العلامات، ولما كانت العرب تعرف

الأنواء لاضطرارها إلى معرفتها اضطر إلى معرفة مسير القمر وتنقله فى منازله لأن النوء عبارة عن غروب النازل من المنازل وطلوع الطالع منها .

والقرآن العزيز لما نزل بلسانهم أشارت فواتح سوره إلى هذا المهم الأكبر عندهم الذى هو سبب حياتهم . ومادة بقائهم ، فكانت هذه الفواتح لسبب ما أشار إليه عددُ صورها ، متضمّنة علوم العالم العلوىّ ، مستلزمة ذكر العالم السفلىّ ، منبهة على قدرة الصانع ، معدّدة ماخلق لخلقه من المنافع ، هذا إلى كون عدد صورها أيضاً وفق عدد حروف المعجم الأصول على المذهب الصحيح فى إلحاق الهمزة لأن الناس اختلفوا فى حروف المعجم ، فمنهم من عد لفظة (لا) حرفا قائما بذاته ، ومنهم من قال: هى لام ، وألف . فعلى القول الأول تكون الحروف تسعة وعشرين حرفا ، وعلى القول الثانى تكون حروف المعجم ثمانية وعشرين حرفا ، ثم اختلفوا فى الهمزة فقائل يقول: إنها نَبْرة من أشكال الضبط كضبط الشدة بمثل الشين ، والضمة بمثل الواو ، وهذه الأشكال لا تقوم بنفوسها لأنها إشارت إلى الحركات والسكنات ، وتلك أعراض والأعراض لا تقوم بنفوسها وإنما تقوم بالجواهر ، فكذلك هذه الأشكال مفتقرة للحروف ، فمحل الهمزة الألف ، وعلى هذا القول لا تعد الهمزة حرفا ، وقائل قال: الألف حرف لا يقبل الحركة البتة دون سائر الحروف فهو على حاله حرف هوائى قائم بذاته غير الألف بدليل اختلاف مخرجهما ، لكن الألف قد تنقلب همزة كما تنقلب أختاها ، وهذا

لا يخرجها عن كونها حرفا قائما بذاته ، وهذا هو أصح المذهبين ، كما أن أصح المذهبين فى (لا) أنها حرفان مركبان ، فصح أن الحروف الأصول تسعة وعشرون حرفا ، وإن كانت تبلغ بالزيادة إلى ستة وثلاثين حرفا، لكن تلك الزيادة غير معتبرة لأنها متفرعة من تلك الأصول ، فتنخل من مجموع ذلك أن عدد صور هذه الفواتح المعجمة وفق عدد حروف المعجم التى تركب منها جميع الكلم المعبرة عن كل شىء فافهم ذلك .

وأما كونها انقسمت فى التركيب وعدم التركيب إلى خمسة أقسام، وأتت صورها بسيطة ومركبة، وانقسم عدد صورها إلى خمستين ، وستتين، وسبعة، وانقسم ما يخص حروفها من العدد الحسابى إلى مائة وعشرين خمسة ، وثلثا عشرة ستة . وثلاث سبعات ، وانقسمت حروفها التى تركبت صورها منها إلى سبعتين وكونها بسيطة ومركبة ، وعدد حروفها الأصول وصورها وما يخص حروفها من العدد الحسابى لم يخرج عن الأعداد الثلاثة أعنى الخمسة ، والستة ، والسبعة فبيان حكمة ذلك سنشرع فيه فى الباب الذى يلى هذا عند تعريف انقسامات المعربة لأنا نُعَرِّف انقسامات المعربة ، ثم نتكلم عن أسرار المعجمة ، ثم المعربة على الترتيب إن شاء الله تعالى .

الباب الثانى :

فى بيان انقسامات المعربة .

اعلم أن الفواتح انقسمت صورُها خمسة أقسام ، كما انقسمت المعجمة

من حيث انقسمت للخبر والاستخبار ، والقسم ، والشرط ، والأمر فما ثلثت المعجمة من حيث انقسمت فى عدم التركيب والتركيب إلى خمس صور من حرف إلى خمسة ، وهذه الانقسامات الخماسية فى المعجمة والمعربة منقسمة إلى الأعداد الثلاثة لا تخرج عنها كما بينت لك ، إذ المعجمة تسعة وعشرون فاتحة فهى مبسوطة على الأعداد الثلاثة : خمستان وستتان ، وسبعة كما تقدم ، والمعربة خمس وثمانون فاتحة ، فهى فى حال بسطها على الأعداد الثلاثة ، أو على عدد منها سبع عشرة خمسة لأنا إذا وقع لنا عدد ، وأردنا بسطه على هذه الأعداد لا نتكلف بسطه على الثلاثة مهما صحت تجزئته على عد واحد منها ، أو على عددين منها ، وأعداد الجمل التى اختصت بها حروف الفواتح المعربة من العدد الحسابى ستمائة خمسة ، وخمس وتسعون خمسة ، إذ حروفها التى تركبت صورها منها بعد حذف المتكرر خمسة وعشرون حرفا ، وبسط هذه الحروف بحكم توزيعها على أحد الأعداد الثلاثة خمسة خمسات ، ويخصها من العدد الحسابى ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وتسعون ، فقد صح أن جميع الفواتح لا تخرج معجمها ومعربها ، وبسيطها ومركبها وما يخص حروفها عن هذه الأعداد الثلاثة ، وانفردت المعربة بالخمسة من هذه الأعداد دون الستة والسبعة ، لتدل على أن المعجمة أصل لها ، ويقوى ماسبق من الدليل على ذلك ، والسر فى انقسامات هذه الفواتح إلى هذه الأعداد الثلاثة ، وشرف هذه الأعداد الذى أوجب لها ذلك دون سائر الأعداد هو أن الخمسة والستة يسميان عند أرباب الحساب عددا دوريا ، غير

أن الستة مع كونها عدداً دورياً تسمّى أيضاً عدداً تاما ، والسّبعة تسمّى عدداً كاملا، والعدد الدورى عبارة عن كل عدد إذا ضرب فى مثله ظهر اسم العدد المضروب فى الخارج منه كالخمسة والستة، فإنك اذا ضربت خمسة فى مثلها كان الخارج خمسة وعشرين ، وهكذا صاعدا إلى مالا يتناهى ، وكذلك إذا ضربت ستة فى مثلها كان الخارج ستة وثلاثين ، وهكذا صاعدا أبدا، فلا بد من ظهور إسم العدد المضروب الأول فى مثله ثم فى الخارج أبدا، وهو الخمسة والستة ولا يوجد فى جميع الأعداد عدد بهذه المثابة غير هذين العددين ، والعدد التام عبارة عن كل عدد أجزاؤه مساوية لذاته أى بجملته كالستة فإن لها نصفاً وثلثاً وسدسا ، ومجموع هذه الأجزاء مساو لجملتها ، ولا يوجد بهذه المثابة فى جميع الأعداد إلا الستة ، وما يفرع منها بطريق الأضعاف كالاثنى عشر منها ، والستين ، والعدد الكامل: عبارة عن كل عدد أزواجه أفراد وأفراده أزواج ، ولا يوجد بهذه المثابة إلا السبعة ، فإن لها من الأفراد أربعة وهى الواحد ، والثلاثة ، والخمسة ، والسبعة ، وفيها من الأزواج ثلاثة وهى الاثنان والأربعة والستة ، وإنما سمى العدد الدورى دورياً لتنزله منزلة دائرة قد فرضت فى محيطها نقطة ، فكيف درت فى ذلك المحيط مع النقطة عدت إليها ، ولما كان هذا العدد كيفما ضربته فى مثله عاد اسمه فى الخارج سمى دوريا لذلك ، والعدد التام إنما سموه تاما لمساواة أجزائه لذاته ، إذ لو كان ناقصاً لما كان كذلك تشبيهاً بكل ماله أجزاء

يتم بتمامها وينقص بنقصها ، والعدد الكامل إنما سمى كاملا لكونه استوعب وَصْفَى العدد ، وهما الزوجية والفردية ، إذ لا وصف ذاتى للعدد غيرهما فلما كملت لذاته صفات العدد سُمى كاملا ، ولما كانت هذه الأعداد مختصة بهذه الخواص دون سائر الأعداد جاءت انقسامات هذه الفواتح لا تخرج عنها كيفما قُسِمت ، ولا تبعد عنها كيفما حُسبت ، واتفق وقوع الخمسة من هذه الأعداد الثلاثة أكثر من أختيها ، وأتيانها مقدمة عليها كما تقدمت عليهما فى وضع العدد الطبيعى لكونها عددا دوريا ، والدوائر أصول الأشياء كلها لأن المولدات الثلاث أعنى الحيوان والنبات والجماد مركبة من العناصر ، والعناصر أشكال كُرية ، والعناصر كائنة عن الافلاك بإذن الله ، والأفلاك أيضاً كرية قد ثبت ذلك بأدلة إلهية ، والكرات تتحلل إذ قد حدث العالم بالدليل العقلى ، وإذا لم يثبت قِدمُه لا يستحيل عدمه ، لا سيما وقد ثبتت النبوات وتنزيل الكتب عليهم ، وقد تواترت الأخبار بفناء هذا العالم من فرق جميع أهل الكتب ، فثبت تحايل ما ثبت بالدليل العقلى أنها كرات كالعناصر ، والأفلاك ، والكرات إذا انحلت انحلت إلى الدوائر ، فعلم أن الدوائر أصل الكرات لأن كل مركب من مفردات إذا تحلل تحلل لتلك المفردات ، فكانت الدوائر بمثابة الجواهر المفردة التى تتركب منها الاجسام .

فالدوائر إذا أصول العالم ، ولما كان ذلك كذلك كان العدد الدورى أصل

الأعداد ، والخمسة والستة دور يان ، لكن الخمسة عدد بسيط بالنسبة إلى الستة ، والستة مركبة منها لأنها خمسة وزيادة ، والبسيط أصل المركب ، والمركّب فرع عليه ، والاعتبار بالأصل لا بالفرع ، فلذلك كانت الخمسة أصل الأصل ، ولأجل هذا تقدّمت على أختها تقدّم الأصل على الفرع ، وكثر انقسامات هذه الفواتح إليها لما اختصت به من هذه المزيّة .

والفرق بين العدد التام والكامل أن التّام من كل شيء ما كانت ذاته غير ناقصة فحسب ، والكامل من كل شيء هو التام الذات الكامل الصفات فكل كامل تام وليس كل تام كاملا ، ومما يرجّح دليلنا على تقديم الخمسة من هذه الفواتح وكثرتها إشارةُ عددها إلى مهمّ كبير فى العالم العلوى ، ومهم عظيم فى العالم السفلى: أما المهم العلوى فإشارة هذا العدد إلى عدد جهات الاتصالات التى أجرى الله — سبحانه وتعالى — العادة أن اتصالات الكواكب الخمسة والنيرين بعضهما ببعض من هذه الجهات الخمس التى تقدمت أسماؤها سبب فى حدوث الحوادث فى العالم السفلى ، وأما المهم الأعظم فى العالم السفلى الذى أشار عددُها إلى عدده هو الإنسان الذى خلق الله جميعَ المخلوقات من أجله لكرامته عليه ، ويعضد ذلك قوله سبحانه (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ)[1]

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

وإنما كان كريما عليه لأنه خلقه لعبادته ، ولا يجب عليه تكليف ولا يكون مخاطبا إلا بعقله ، والعقل عبارة عن صحة الإدراكات ، والتميز بين المدركات ، وتحسين الحسن وتقبيح القبح لا رجوعا إلى العادات ، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بصحة أعضائه الرئيسية ومزاجه ، ومجموع ذلك خمسة لأن الأعضاء الرئيسية على رأى ابن سينا[1] الدماغ والقلب والكبد والمعدة والانثيان ، وجميع آلات الإدراك فى الدماغ ،لأن البطن المقدم منه محل القوة الخيالية و يسمى خزانة الحس المشترك ، وهى التى تبقى فيها صور المبصرات بعد زوالها ، والبطن المؤخر منه محل الذكر ، والبطن الأوسط منه محل الفكر ، والذى يبعث الأرواح لهذه القوى إنما هو القلب فإن فى تجويفه دما هو المعبّر عنه بالسويداء له بخار هو الروح الحيوانى المنبث فى سائر الجسد لأن الجسد أبدا فى التحلل ، وطبيعته تطلب إخلاف ما تحلل منه ، فتستدعى القوة الشهوانية المستعدة لطلب ما يلائم الغذاء فإذا تناول الغذاء أو استقر فى المعدة هضمته الهضم الأول على رأى غير ابن سيناء ، فإن هضم المعدة عنده هضم ثان إلى أن يصير الغذا كيلوسا[2] ثم يطبخه

---

(١) هو الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسين بن على بن سينا البخارى الفيلسوف الطبيب ولد ببلخ ثم تنقل فى البلاد واشتغل بالعلوم ثم اتقن القرآن وتفسيره والأدب والحساب والجبر وغير ذلك من العلوم ثم رغب فى علم الطب فأتقنه وعالج تأديبا لا تكسبا حتى فاق فيه الأوائل والأواخر وتوفى بهمذان سنة ٤٢٨ هـ .

(٢) معرب خيلوس باليونانية وهو من الطعام إذا سال .

الكبد بالحرارة التى أودعتها الحكمة الإلهية فيها لإنضاج الأغذية حتى تصير كيموسا[1] أعنى أخلاطا ، ثم تميز الأخلاط وتبعثها فى الماسريقات[2] إلى سائر الأعضاء الرئيسية والمرءوسة ، فتأخذ منها حاجاتها وتدفع القوة الغضبية الدافعة فضلتها ، والقوةُ الدافعة فرع القوة المستعدة لدفع مالا يلائم ، ثم يحصل من اختلاط الأخلاط بعضها ببعض حالة كما يحدث لكل مركب من الحالات التى لم يكن لمفرداته تسمى تلك الحالة مزاجا ، ثم يوصف باسم ما تغلب عليه من الأخلاط إذا كان فى أحدها زيادة على بقيتها ، وإن تعادلتْ كان المزاج معتدلا لذلك ، ثم يوصف المزاج بالصلاح والفساد بحسب صلاح الأخلاط وفسادها من جهة الغـــذاء وغيره ، فقد عُرِف أن الإنسان عبارة عن هذا الحيوان الناطق ، ومعنى النطق الإدراكات وهى صنفان: حسية بالحواس الخمس ، وعقلية وهى بالقوى الخمس ، وهى قوى الدماغ الثلاث ، وقوتا القلب الشهوانية والغضبية ، وهذا المجموع عين الإنسان الذى يصح عليه التكليف ، ولما كان هذا الكتاب العزيز إنما نزل لهدايته وليوجب عليه عبادات هى أركان الدين ، وهى خمس أيضا التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج وكان هذا الكتاب عبارة عن مجموع هذه السور التى تدل فواتحها عليها انقسمت

---

(١) والكيموس : معرب خيموس باليونانية وهو الطعام إذا انهضم فى المعدة وقبل أن ينصرف عنها ويصير دما .

(٢) الماسريقات : جميع ماساريقى بالقصر وهى غشاء ذو غدد وعروق وشرايين يمسك الأمعاء الدقيقة حافظا إياها وهى يونانية .

فواتحها صورا وحروفا وأعدادا لحروفها من جهة حساب الجمّل إلى الخمسة ، والستة والسبعة بحيث لا يخرج عن هذه الأعداد الثلاثة لما فيها من الخواص التى شرحتها ، ووقع مجيء الخمسة فيها مبتدأ بها دون أختيها مقدمة كما تقدمت فى العدد الطبيعى عليهما ؛ وجاءت أكثر منهما لأنّ مُوافقها من الأعداد هو الذى أنزلت بسببه ، وكلّفته ما يصلح حاله به ، لأنه قد ثبت أن الإنسان عبارة عن الإدراك وآلات الإدراك خمس من حسّى وعقلى لا يزيد على هذا العدد ولا ينقص عنه ، وما كلف به خمس أيضا بإشارة الحديث الصحيح (بنى الإسلام على خمس) وكان الكتاب الذى أنزل من أجله منقسما إلى خمسة أقسام : أخبار ، ومواعظ ، وأمثال ، ووصايا وأحكام ، وكان هذا العدد أيضا أعنى الخمسة مشيرا إلى الجهات الخمس جهات الاتصالات التى تصل الكواكب الخمسة والنيرين بعضها ببعض من جهتها وقد سبق ذكر أسمائها .

واعلم أن اتصالات الكواكب من هذه الجهات سبب لحدوث الحوادث فى عالمنا هذا ، وعلامة لوقوعها بإذن الله سبحانه ـ ولما كان هذا العدد مشيرا إلى هذا المهم العظيم فى العالم العلوىّ ومنبّها على ما هو أعظم فى العالم السفلىّ ، جاء أكثر من العددين الآخرين ، وتقدّم عليهما لخصوصيته وشرفه وشرف ثمرته ، والله أعلم .

الركن الثالث

فى الاستدلال على كون هذه الفواتح دالة على الصانع والمصنوعات الكليات والجزئيات البسائط والمركبات وما يتنخل منها عند ذلك من المعجزات المعجّزات لأرباب البلاغات فى جميع الأوقات :

وفيه بابان

الباب الأول :

فى الاستدلال على الصانع والمصنوعات

قد تقدم القول أن الفواتح المعجمة أصل المعربة ، ويجب تقديم الأصل، فنقول المعجمة تدل على أن البارئ — سبحانه — واحد من كل وجه ، وأنه موصوف بصفات الجلال وسمات الكمال ، وأنه صانع العالم بطريق الإلغاز من جهة الإيجاز بدلالة التضمن والالتزام ؛ وذلك أحد قسمى البلاغة لأن البلاغة : إيجاز من غير إخلال وإطناب من غير إملال ، ونبرهن فى ضمن ذلك عن كونه — تعالى ذكره — أقسم تارة بذاته ، وآونة بصفاته ، وطورا بمخلوقاته .

والمعربة تدل أيضا على جميع ما دلت عليه المعجمة ، وتصرح بأن المعجمة جاءت أقساما لأن بعض المعربة قد صرّحت بالقسم و بعض المعجمة أيضا ، هذا إلى ما جمعت من قسمى الكلام الصناعىّ واللغوىّ ، أما الصناعى فإنها أتت بالإسم والفعل والحرف ، وأما اللغوى فلأنها

جمعت الخبر والاستخبار ، والأمر والنهى والوعد والوعيد ، أما الخبر والاستخبار والأمر فصرح به فيها، والنهى ملزوم الأمر على أحد المذهبين ، والوعد والوعيد مُندرجان تحت قِسَمى الخبر والقسم ، كلّ هذا بطريق الإطناب، ودلالة المطابقة وهى دالة على جميع هذه المعانى بجميع أقسام الاستدلال بالمطابقة والتضمن والالتزام فكما جمعت بين قسمى الكلام الصناعى واللغوى، وبين قسمى العبارة التصريح والإشارة، وبين قسمى البلاغة: الإطناب والإيجاز فكذلك جمعت بين أقسام الاستدلال فالحظ ما فيها من جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، هذا إلى ما احتوت عليه من جميع الحروف المركب منها جميع الكلم المعبّر بها عن جميع الاشياء .

وإنما قلنا: إن هذه الفواتح دالة على الصانع والمصنوعات لكون أوّل المعربة (الحمد) وأول المعجمة (آلم) ولا يقال من أين هذه الأولية ؛ والسور إنما رتبت هذا الترتيب بعد انقطاع الوحى وإذا كان كذلك فترتيبها لامن الله سبحانه، ولا من رسوله إذ لو كان عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكان من الله ـ سبحانه ـ ، وإذا لم يكن هذا الترتيب من الله فمن أين تصح الأولية الحقة ، لأنا نقول : من أدلّ الدليل على أن هذا الترتيب من الله سبحانه وقوعه على ماوقع عليه باعتقاد الإجماع ، ونقل التواتر ، ويستحيل وقوع شيء فى الوجود على خلاف مراد الله سبحانه ، فوقوعه على هذه الصورة مراد لله تعالى ، وإذا كان كذلك فهو من الله سبحانه ، وأما إخبار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمأخوذ من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لن

تجتمعَ أمتي على ضلال أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وإذا لم تجتمع على ضلال اجتمعت على الهدى والهدى من الله ـ سبحانه ـ ولا خلاف في انعقاد الإجماع على هذا المصحف الذي في أيدينا المرتب على هذا الترتيب ، ويؤيد هذا الدليل قول الله سبحانه « إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه »[1] ولهذا لم يأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجمعه في حياته فقد صدق وعد الله في جمعه كما صدق في حفظه ، فجمعه على هذ الترتيب من الله سبحانه، فبينت أن أول الفواتح المعجمة والمعربة لفظتا «آلم» «والحمد» وأول كل كلمة من هاتين الكلمتين الألف ، والألف شكل بسيط بالنسبة إلى سائر الحروف ، وسائر الحروف مركب بالنسبة إليها ، وقد سبق أن البسيط أصل المركب ، فالألف أصل لسائر الحروف ، ولهذا تقدمت عليها في الكتاب ، ولها أولُ العدد ، وهو الواحد ، والواحد بسيط يتركب منه جميع الأعداد ، ولا يتركب من شيء منها ، فهو مُوجِد جميع الأعداد ومفنيها وجميع الأعداد مفتقر إليه ، وهو مستغن عنها ، له الرتبة الأولى في التقدم ، فهو أول الأعداد وآخر ما يبقى منها بعد نفادها ، وهو لا داخل العدد ولا خارج منه كل العدد إلى مالا يتناهى صادر عنه ، وموجود منه ومعدوم به وهو خط الألف من العدد الحسابي ، ولهذا قال الخليل ـ رحمه الله ـ في تفسير حروف المعجم: الألف الأول من كل شيء ، والألف قد وقعت أول هاتين الفاتحتين الأوليين ،

---

(١) سورة القيامة : ١٧ .

فثبت أنها فيهما مُشيرةٌ إلى الصانع - سبحانه - بدليل الالتزام لأنه - تعالى ذكره - واحد من غير تكثير، مدبّر بغير مشير ولا وزير ، ليست أوليتُه مسبوقةً بشيء كما أنّ أولية الألف مسبوقة بحرف من الحروف ، والواحد الذى تضمّنته ليس مسبوقا بعدد من الأعداد وهو - سبحانه - الباقى بعد كل شيء ، وموجِد كل شيء ومُنْدم الأشياء ومفنيها، ومميت الخلائق ومحييها ، وهو لا داخل العالم ولا خارج منه ، سبق علمه بهلاك كل شيء إلا وجهه الكريم ، لينفرد بالبقاء بعد مخلوقاته ، ويتصف بالدوام الأبدىّ ، والبقاء السّرمدىّ ، تقدمُه على سائر الموجودات تقدّم الفاعل على المفعول لا تقدم العلّة على المعلول ، فيتنخل من هذا إشارة الألف إلى الصانع سبحانه ، ودلالتها على وحدانيته وأبدية وسرمديته ، وسبقه الزمان والمكان وسائر الأكوان ، ولما كان هذا الحرف بسيطا بالنسبة إلى غيره ، وكان أولا لجميع الحروف، وهو مشير إلى الواحد الذى هو أول لجميع الأعداد ، بسيط بالنسبة إليها أنبأ الأول عن الأول ، وأشار الواحد إلى الواحد ، وأما اللام والميم اللتان هما بقية (الم) فلهما من العدد سبعون[1] ، وهى مبسوطة بحسب الأعداد الثلاثة ، أو بعضها عشر سبعات، أعنى سبعة تكررت عشر مرات ومن هذا العدد نستنبط الاستدلال على المصنوعات إذ هو مشير إليها ، فكل سبعة مشيرة إلى سبعة من العالم الأثيرى ، والعنصرى ، والمولد منه والظرف الزّمانى وأبواب النيران، وأنهار الجنان، فقد أشار إلى كليات الدنيا والآخرة،

(١) أى بعدد حروف الجمل إذ أن اللام بثلاثين والميم بأربعين .

وجملة هذه الكليات عشر سبعات : الأولى منها السموات السبع التى نطق بها الكتاب العزيز ، ولا يقال قد دلتأ دلة الإلهية على أن الافلاك تسعة فإنا نقول : الأفلاك وإن كانت تسعة فالسموات منها سبع وهى : أفلاك الكواكب الخمسة ، والنيرين ، وأما الفلك الثامن الذى هو منطقة البروج فهو الكرسى بدليل قو سبحانه: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)(١) وفى هذا دليل على أن السموات سبع ، لأن الفلك الثامن محيط بها وبالأرض ، والفلك التاسع الأطلس هو العرش بدليل قوله تعالى: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)(٢) وهذا تأويل بعض من أراد أن يجمع بين الأدلة العقلية والسمعية فى أمر الأفلاك ، وأما الذى أعول عليه بغير هذا الاستدلال ، وهو أن القرآن نزل بلسان العرب وخوطبوا فيه بما يفهمون ويألفون .

والذى تعرفه العرب إنما هو هذه السبع الطباق بالمعاينة لكواكبها فإن أوسعها دائرة فلك زُحَل السابع ، وكوكبه نقطة دائرته تقطع فى ثلاثين عاما ، فكان هذا مما يمكن العرب رَصْده لأنهم أهل سُرَى(٣) فى الليالى ، ورقبة لكواكب الأنواء ، فأما كواكب الفلك الثامن الذى يزعم أهل الرَّصد أنها تقطع دائرته فى ستة وثلاثين ألف عام ، فهذا مما لا تعرفه العرب ولا تشتغل به ، وكذلك إقامة الدليل على وجود الفلك الأطلس الذى

(١) سورة البقرة ٢٥٥ .
(٢) سورة الحاقة : ١٧ .
(٣) السرى : السير بالليل عامة .

لا كوكب فيه يُرْصد من جهة حركة الشمس اليومية ، فهذه غير علوم العرب التى تعرفها ، فلا جَرَم أن القرآن العزيز نزل لهم بما يعرفون، وخاطبهم بما يألفون ، وأشارت إحدى السبعات من عدد فاتحته الأولى إلى عدد هذه السموات ، والسبعة الثانية إلى كواكبها ، والسبعة الثالثة إلى الأرَضين ، والسبعة الرابعة إلى الأقاليم ، والسبعة الخامسة إلى المعادن ، والسبعة السادسة إلى الحيوان ، والسبعة السابعة إلى الليالى ، والسبعة الثامنة إلى الأيام ، والسبعة التاسعة إلى أبواب النيران، والسبعة العاشرة إلى درجات[1] الجنان . فأما عدد السموات والأرضين فلا خلاف فيه نصا وإجماعا من أهل الكتب فالنص قوله ـ سبحانه ـ : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ[2]) ولا مخالف من أهل الكتب فى ذلك .

والكواكب السبعة زحل، والمشترى، والمرّيخ، والشمس ، والزّهرة، وعطارد ، والقمر .

والأقاليم سبعة بحسب مرور أشعة الشمس من مشارقها إلى مغاربها فى طول السنة .

والمعادن سبعة وهى : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والقصدير ، والرصاص ، والزئبق .

وأنواع الحيوان سبعة مندرجة تحت أربعة أجناس متوسطة ، والأجناس ما يمشى ، وما يطير ، وما يعوم

(١) فى الأصل « درجة » والسياق يقتضى ما أثبتناه .
(٢) سورة الطلاق : ١٢ .

وما ينساح[1]. فما يمشى تحته ثلاثة أنواع : ما يمشى على رجلين ، وما يمشى على أربع ، وما يمشى على أكثر من الأربع ، فالماشى على رجلين قسمان : ناس ، وطائر ، وما يمشى على أربع قسم واحد وهو الوحوش ، وما يمشى على أكثر من الأربع ، وهو الحشرات ، وما يعوم وهو الحيوان المائى ، وما ينساح وهو الحيات ، وبعض الديدان ؛ فالحيوان وإن كان أربعة أجناس بحسب هذه القسمة فهو ثلاثة أجناس بحسب مانطق به القرآن الفصيح . فإن القسمة الأولى أفردت ما يمشى بغير آلة مما يمشى بآلة ، والقرآن جعل كل ما يمشى جنسا واحدا ، فالحيوان على هذا الحكم ثلاثة أقسام : جوّى وهو ما يطير ، وبرّى وهو ما يمشى ، وبحرىّ وهو مايعوم ، فالجوى أربعة أصناف ، وهو نوعان : طائر ، وهمج ، فالطائر كل حيوان ذى ريش وقصب ، ومناقير وأجنحة ذات خواف وقوادم ، وهو ثلاثة أصناف : سبع ، وبهيمة ، وبغاث ، فالسبع آكل اللحم ، والبهيمة آكلة الحب ، والبغاث ما لا يفترس من السباع كالنسر والرخم[2] . والهمج نوع واحد ، وهو كل مايطير بلاريش ولاقصب ولا مناقير كالنحل والزنابير والبعوض والجعلان[3] وما أشبه ذلك ، وما يعوم صنفان : صنف يقع عليه اسم السمك كالحوت وما أشبه ذلك ، وصنف لايقع عليه اسم السمك كالتمساح والرّق[4] وما أشبه

(١) ومايتساح أى يتلوى فى مشيته على الأرض .
(٢) الرخم : واحده رخمة وهى طائر يشبه النسر فى الخلقة .
(٣) الجعلان : ضرب من الخنافس .
(٤) الرق : بفتح الراء ضرب من دواب الماء يشبه التمساح .

ذلك فصحت عدة الحيوان سبعا : ما يمشي على رجلين ، وما يمشي على أربع ، وما يمشي على أكثر من ذلك ، وطائر ، وهمج ، وما يعوم ، وما ينساح، وقد جمعت هذه الأنواع من بلاغة القرآن بعض آية وهي قوله تعالى : (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ[١]) فأتى سبحانه بالجنس الأعلى مجملا ، ثم أتى بأنواعه مفصلا فقال تعالى : فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ومِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ[١]) فبدأ — سبحانه وتعالى — بما يمشي على بطنه لأنه أعجب من غيره حيث يمشي بغير آلة، والآية سيقت لبيان القدرة ، وتعجيب السامع فكان المهم فيها تقديم ما هو أعجب ، ثم ثنى بالأشرف ، حيث استوفى الحكمة في تقديم الأعجب ، وهو الآدمي لما في خلقه من الكمال والحسن والتناسب ، ويندرج معه الطائر . وفيه أيضا من التعجيب للسامع ما فيه ، وهو طيرانه على كافة الحيوانية ، وختم بما يمشي على أربع ، ولا يقال هذه الآية متوجه على ظاهرها إشكال من جهة الإخلال بقسم من أقسام الحيوان ، وهو الصنف الذي يمشي على أكثر من الأربع ، فتكون مستوعبة لجميع أقسام الحيوان ومثل هذا تتحاشى بلاغة الكتاب العزيز عنه ويشبه هذا الإشكال ما وجهوه على قول جرير .

كانت حَنيفةُ أثلاثا فثُلْثُهم من العَبيدِ وثُلثٌ من مَوالِيها

(١) سورة النور : ٤٥ .

فأخل من الجملة بثلث ، والإشكال مندفع بأمرين :

أحدهما تواطئ أهل اللسان على تغليب الأكثر والأفضل على الأقل والأدون، وهذا أظهر من أن يظهر ، وأشهر من يستشهد عليه بشيء ، وما يمشى على أربع أكثر وأفضل وأقوى وأنفع مما يمشى على أكثر من الأربع ، فذكره تغليبا له على ذلك والله أعلم .

وترتيب هذه الأنواع فى الآية شاهد لما ذكرت لأنه — سبحانه — بدأ بذكر الأعجب لأن المراد بالآية تعجيب السامع ، وثنى بما هو أفضل ، وهو الإنسان، ولم يذكره بفضل يمنع غيره من الدخول معه ، وإنما ذكره بما يدخل معه فيه الحيوان الذى يمشى على رجلين وهو الطائر ، كما ذكر نوعَ ما ينساح برسم يمكن دخول غيره معه فيه ليندرج تحت لفظه ما يعوم[1] ، لأنه مما يمشى على بطنه، وإنما لما كان ذلك المشى فى الماء سمى عوما لا مشيا ، ثم ذكر ما يمشى على أربع ، وهو أفضل ما بقى من الحيوان ، وأسقط الهمج من الطير ، والحشرات من الوحش لقلة منفعتها كما أسقط جرير من بيته الثلث الذى لا يستحق الذكر فإنه قال :

كانت حنيفةُ أثلاثا فثلثهم ... من العبيد وثُلث من مواليها

فجعل ثلثَ هذه القبيلة الأولى عبيدا ، والثانى عبيد العبيد ما يستحق

---

(١) فى الأصل « يقوم » وهو تحريف ، الصحيح ما أثبتناه .

الذكر فأهمله ، وهذا غاية الهجاء كما تقول لمن تبالغ فى نسبه لست عندى شيئا فتذكر ، ولا آدميا فتهجى .

وأما الأمر الآخر الذى ينحل به الإشكال ، فهو ماذهب إليه الحكيم الفاضل أرسطا[1] طاليس فى هذا الصنف من الحيوان فإنه قال فى : (كتاب الخواص الكبير): إن الحيوانات التى ترى لها آلات تمشى عليها كثيرة ، إن لها يدين ورجلين لا غير كسائر الحيوانات ، و بقية تلك الآلات زيادات كالزُّبانات للعقارب ، والقرون للجعلان ، وما أدرى ما دليله على ذلك إلا أنه قول إذا عضَّده الدليل انحل به الإشكال المتوجّه على ظاهر الآية ، ويبقى هذا الصنف من الحشرات ، و إن كان فى رأى الغير يمشى على أكثر من الأربع ، فهو داخل حقيقة فيما يمشى على أربع ، ولا تعتبر تلك الزيادات لأنها لو قطعت مثلا و بقيت له من مؤخّره أو مقدّمه أربعا من تلك الآلات استقام مشيه عليهن ، و إن جُرّب ذلك وصح كان دليلا لدعوى أرسطاطاليس والله أعلم .

والسبعة السابعة : الليالى ، وهى عبارة عن أوقات استتار الشمس عن الأعين بمخروط الظل عند انقضاء النهار بحسب عرض كل إقليم إلى حيث

---

(١) ارسطاطاليس : هو ابن نيقوما خوس الفيثاغورى تلميذ أفلاطون ومعلم الاسكندر ملك مقدونية وهو أشهر فلاسفة اليونان وله تآليف كثيرة فى شتى العلوم ولا سيما فى الفلسفة والطبيعيات وتوفى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد .

تظهر للأعين من جهة المشرق ، و إنما كانت سبعا لأنها عدد الأيام والأيام سبعة ، لكل يوم ليلة، والدليل على أن الأيام سبعة إنما هو من جهة السمع لأن ذلك نقل عن العرب كافة ، ولم يختلفوا فيه قديما وحديثا ، وعن كافة أهل الكتب فإنهم أجمعوا على أن الله سبحانه ابتدأ الخلق من يوم الأحد وكمّله فى يوم الجمعة ، واستوى على العرش يوم السبت من غير تكييف ولا تشبيه ، قال الله — تبارك وتعالى — (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)(١) .

والسبعة التاسعة أبواب النار ، قال الله تعالى (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)(٢) .

والسبعة العاشرة درجات الجنـــان وهى جنان بعضها أشرف من بعض وأفضل ، وقد وردت لها أسماء فى الكتاب العزيز ، وذهب أكثر المفسرين إلى أن مسمّيات تلك الأسماء متعدّده ، وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء مرادفة كجنة النعيم ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وما أشبه ذلك ، فثبت أن مجموع (آلم) دال على الصانع والمصنوعات ، وكليات الأمور الدنيويات والأخرويات ، وهى أول الفواتح ، وهى مندرجه فى أول الفواتح المعربة . فمدلول أحرفها الثلاثة مدلول أمثالها من أحرف

---

(١) سورة يونس : ٣

(٢) سورة الحجر : ٤٤

الفواتح المعربة ، وبقية المعربة وهى الحاء ، والدال لها من العدد الحسابى أثنى عشر ، وهى ستتان من الأعداد الثلاثة ، كل ستة منهما تشير إلى عدد البروج التى تنتقل الكواكب فيها بسبب اتصال بعضها ببعض ، وذلك الاتصال سبب حدوث الحوادث السفلية ، فظهر أن أولى الفواتح المعجمة والمعربة يستفاد منهما الاستدلال على الصانع والموصنوعات الكليات والجزئيات البسائط والمركبات والحوادث الكائنات وظرف وضروب الأفعال الحادثات ، وجهات المكونات ، ومفهومات الخطاب بذلك الاعتدا على المخاطب بهذه النعم العظيمة والأيادى الجسيمة من إيجاده بعد العدم ، وإيجاد كل موجود لمنفعته ، ولما كانت الفاتحة المعربة جامعة لجميع هذا الاستدلال ، فلهذا كان مفهوم الشكر لله سبحانه على النعم التى دلت بمفردات حروفها عليها ، وأشارت بأعدادها وإنقساماتها إليها ، ألا ترى أن جميع الفواتح المفتتحة بالتحميد مشيرة إلى جملة نعم الدارين ، فإن أم الكتاب بعد تصديرها بحمد الله تعالى صرحت بأن الله سبحانه أوجد جميع العوالم ورباها وكثرها ونماها ، والأنعام[1] بعد التصدى بالتحميد مصرحة بخلق السموات والأرض والظلمة والنور ، وهذه الأشياء هى عين المذكورة فى أم الكتاب ، وهاتان الفاتحتان أعنى أم الكتاب ، والأنعام عدد سبحانه فيهما جميع النعم الدنيوية ، والكهف[2] مصرحة بعد التحميد بجميع النعم الأخروية ، حيث ذكر سبحانه فيها إنزال الكتاب العزيز على

(١) سورة الأنعام . (٢) سورة الكهف

نبيه الكريم لهداية العالمين ، وإظهار الدين ، ومعنى هذه الأمور من سورة الكهف مطابق لمعنى الأمور المذكورة فى أول البقرة فى الاعتداد بإنزال الكتاب للهداية ، وكما وقعت هذه المعانى فى البقرة بعد (آلم) وقعت فى الكهف بعد التصدير بالتحميد . وفاتحة سبأ وصف فيها بعد التحميد ملكه الذى لا ينبغى إلا له . وهو ملك السموات والأرض وما فيهما ، وذكر استئثاره[1] بالحمد حيث لا يحمد سواه ، فهى جامعة للاعتداد بجميع نعم الدنيا والآخرة ، وفاطر ، ذكر سبحانه فيها بعد التحميد الاعتداد بخلق السموات والأرض وخلق الملائكة الذين يستغفرون لمن فى الأرض، ويبلغون وحيه إلى انبيائه لهداية عباده ، ويسبحون بحمده ويلهجون بتعظيم مجده، فقد جمعت أيضا الاعتداد بجميع نعم الدنيا والآخرة فتأمل من هذا أن الفواتح المفتتحة بالحمد دالة بمفردات حروف أولها على ما دلت عليه مركبات الألفاظ المؤتلفة معها كلاما تاما وجملا مفيده ، وجاءت عدتها خمسا لتكون وفق عدد أقسام المعجمة فى الصور البسيطة والمركبة ، ووفق عدد ما انقسمت إليه المعربة من أقسام الكلام اللغوى والكلام الصناعى ، فتكون مفردات صورها متضمنة معانى ما جاء فى بسط سورها من الدلالة على الصانع والمصنوعات والإيجاد والإعدام والمعاد والثواب والعقاب ، لأن حروف لفظة الحمد الخمسة جاءوفق عدد جميع الفواتح المعجمة ، إذهى خمسة أقسام.

---

(١) فى الأصل . « استنارة بالجملة » وهو خطأ .

وجميع الفواتح المعجمة يدلّ بالطريق التى بيّناها على جميع ما ذكرنا بدلالة التضمّن والإلتزام ، فانظر لعظيم مدلول هذا العدد مع ما اختص به من السر الخفىّ الذى أظهرته لك، وثبت لها به التقدم على سائر الأعداد ، ثم إن أول الفواتح المعجمة جاءت ثلاثة أحرف لتكون مشيرة إلى البارى سبحانه بأول حروفها ، وإلى الخلق والأمر ببقية أحرفها ، والخلق والأمر يستلزمان كونه تعالى موصوفا بصفات الكمال ، إذ قد ثبت أنها بسيطة بالنسبة إلى المعربة ، والبسيط أصل المركب ، وجاءت أول الفواتح المعربة على خمسة أحرف لتدل على العالم ببسائطه ومركباته، وعدة ذلك خمس ، وهى الأفلاك والعناصر وهذان بسيطان ، والحيوان ، والنبات والجماد ، وهذه مركبة من العناصر ، ولما ثبت أن المعجمة أصل ، وأن المعربة فرع عليها ، دل الأصل على الأصل، والفرع على الفرع ، وأما [ما يدلك[1]] على أن الفواتح المعجمة أقسام أن أصولها وقعت أقساما مصرحا فيها بالقسم ، وأصولها البسائط منها وهى ، قَ ، صَ ، ن إذ ثبت أن البسيط أصل المركب وإنما قلنا إن هذه الفواتح أقسام لأن مابعدها مجرور بالقسم ، وهو معطوف عليها ، وحكم المعطوف على شىء فى الإعراب حكم ذلك الشىء فإنه — سبحانه وتعالى — قال : (قَ وَالقُرْآنِ المَجيد) فعطف القرآن مجروراً على لفظة (قَ) ولا معنى لجره ، إلا القسم فدلّ على لفظة (قَ) قسم وكذلك (صَ والقُرآنِ ذِى الذِّكْرِ) ومثلهما (ن والقَلَمِ) ولما ثبت أن هذه الفواتح البسيطة

(١) ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

أقسام ، والبسيط أصل المركب لزم من ذلك أن تكون المركبة أقساما.

وأما معانى هذه الفواتح البسيطة من المعجمة فهى أن (قٓ) لها من العدد الحسابى مائة ، وهذا العدد يشير إلى أسماء الله تعالى ، وهى ، تسعة وتسعون اسما ورد بها حديث الترمذى ، وتمامها اسمه الأعظم المكنون فى غيبه الذى لا يختص به إلا أكرم عباده عليه فى وقته ، وقد تضافرت الأخبار على ذلك ، فكأنه ـ سبحانه وهو أعلم ـ أقسم بأسمائه التى أشار إليها فى هذه الفاتحة . وصرح بها فى أثناء السور حيث قال (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا[1]) وإذا تحلل عدد (قٓ) إلى الأعداد الثلاثة كان عشرين خمسة ، وأما (صٓ) فلها من العدد تسعون ، وإذا تحلل هذا العدد كان خمس عشرة ستة ، وعددها يدل على جميع أمور العالم بأسره ، وهو الأفلاك التسعة ، والنيران ، والدرارى الخمسة ، والعناصر الأربعة ، والمولدات الثلاثة ، والجهات الست ، والأقاليم السبعة ، ومنازل القمر الثمانية والعشرون والبروج الاثنا عشر ، والليالى السبع ، والأيام السبع ، وجملة ذلك تسعون ولما كان عدد (قٓ) عشرين خمسة ، وقد ثبت أن الخمسة بسيطة بالنسبة للستة . وعدد (صٓ) خمس عشرة ستة ، والستة مركبة بالنسبة للخمسة ، والبسيط أقدم من المركب لكونه أصله ، دل القديم على القديم والمحدث على المحدث ، فدلت (قٓ) على أسمائه ، ودلت (صٓ) على مصنوعاته

---

(١) سورة الأعراف ١٨٠

وأما (ن) فلها من العدد الحسابي خمسون ، وإذا تحللت كانت عشر خمسات ، وهي تشير إلى جميع الأمور الأُخرَوية ، وهي ملك الموت ، ومنكر ونكير ، والكتاب ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة والنار ، وأبوابها . ورضوان ، ومالك ، وخزنة النار ، والثواب ، والعقاب والحسنات ، والسيئات ، ومجموع ذلك خمسون ، فانظر إلى السر الخفيّ ، في مجيء هاتين الفاتحتين من البسائط الأولى والأخرى ، على عدد لايتحلل إلا إلى الخمسة التي هي أبسط الأعداد الثلاثة لتدل كلّ واحدة منهما على قديم بالنسبة إلى مدلول الفاتحة التي جاء عددها مركبا وهي (صٓ) فقد ظهر لك مدلول هذه الفواتح البسيطة ، وأول الفواتح المركبة ، وقس عليها كل (الٓمٓ)،ثم ركّب من فاتحتى البقرة و(صٓ) فاتحة الأعراف لتعلم أن مدلولها مدلولهما ، وافعل كذلك بفاتحة الرعد من البقرة و(صٓ) مضاعفة ، ويكون مدلولها مدلولهما ، وكذلك كل فاتحة (الرٓ) من فاتحتى البقرة والرعد بإسقاط الميم،وأما معنى أضعاف عدد (قٓ) وهي تأكيد قسمه سبحانه بأسمائه فكأنه أقسم بها مرتين: الأولى مؤكِّدة والثانية مؤكَّدة ،وأما(كٓهيٓعٓصٓ) فالكاف منها لها من العدد عشرون ، وهي تشير إلى منطقة البروج لأنه الفلك الثامن ، وهو محيط بالسموات السبع ، وبروجُه التي انقسم إليها مجموعه، وبروجُه مع ما أحاط به من الأفلاك عشرون ، فانظر إلى ما دل عليه هذا الحرف المفرد الذي هو جزء من فاتحة مفردة من جميع الأفلاك المكوكبة ، والبروج ، والمنازل ، والكواكب المتنقلة فيها واتصالاتها ،

وهيآتها وأحكامها (والهاء) لها من العدد خمسة ، وهى تشير إلى جهات الاتصالات الخمس و (الياء) لها من العدد عشرة ، وهى تشير إلى الأفلاك التسعة ، وإلى دوره التاسع التى تدير جميع الأفلاك بحركتها القاصرة لها ، وبها كانت الشمس تقطع الفلك فى يوم وليلة لشهادة الخمس وهى تقطع دائرة فلكها بحركته الإختيارية فى عام ، (والعين) لها من العدد سبعون ، وهى تدل على مادلت عليه اللام والميم من (الم) و(الصاد) منها تدل على مادلت عليه (ص) البسيطة ، و (طه) لحرفها من العدد أربعة عشر ، وهذا العدد يشير إلى منازل القمر فإنها مقسومة على الليل والنهار شطرين ، وكل شطر منها أربع عشرة منزلة ، فجاءت هذه الفاتحة مشيرة إلى الظرف الزمانى و (يس) لحرفها من العدد سبعون ، ومدلولها مدلول العين من (كهيعص) ، واللام والميم من (الم) والطواسيم كلها من (الم) (طه) (يس) (الطاء) من (طه) و (السين) من (يس) والميم من (الم) و (والحواميم) كلها جاء لها من العدد ثمانية ، وهى تشير إلى الأفلاك المكوكبة ؛ والميم من (الم) فقد ثبت أن هذه الفواتح مجموعة ومفترقه بسيطة ومركبة بصورها وحروفها والعدد الذى يخصها مشيرة إلى الصانع تعالى أسمه ، وإلى مصنوعاته من جميع أحوال الدنيا والآخرة وعوالمها بالوحى والإشارة ، وتبين أنها أقسام ، وذلك لمطابقة الفواتح المفتتحة بالقسم لها فى معانيها وذلك أنه تعالى قال: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[1]) فأقسم سبحانه بالفلك الثامن ، وهو

(١) سورة البروج : ١ .

منطقة البروج ، وما تتضمنه من المنازل لأن المنازل، هى تجزئة البروج لكل برج منزلتان وثلث منزلة فدل، اللفظ بالمطابقة على البروج الاثنى عشر، ودلّ بالتضمّن على المنازل الثمانية والعشرين منزلة والله أعلم.

وقال سبحانه وتعالى (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ[1]) فأقسم - تعالى ذكره - بفلك زُحل ، وهو السابع ، وجاء ترتيب المقسم به على ترتيب السّور إذ أقسم سبحانه فى الأُولى بأعلى المكوكبة ، وهو الثامن . وفى الثانية بأعلى أفلاك الدرارى ، وهو السابع ، والطارق: زحل وسمى طارقا لظهوره ليلا، وإن كانت النجوم كلها تظهر ليلا وإنما خصص هذا بهذا الذكر من دون كل ماشاركه فى الظهور ليلا لكثرة إضاءته ، لأنه يظهر من وراء ستة أفلاك لقرب نوره ، فسمى طارقا لذلك لأن الزائر ليلا يقال له طارق ، لا يقال طرق فلان إلا إذا جاء ليلا ، ولما تميز هذا الكوكب بكثرة النور خص بالذكر من بين الكواكب ، لأن النوع المعنىّ بذكره من جنس ما إنما يخص بالذكر على انفراده بعد ذكر جنسه المتضمن ذلك النوع لمزية فضله كما قال سبحابه (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ[2]) ودليل كثرة نوره نعته بالثاقب فإن الله سبحابه عظّمه بتكرار اسمه حيث قال تبارك وتعالى (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ[1]) فكرره تعظيما لشأنه، ثم قال: (النَّجْمُ الثَّاقِبُ[1]) ، والثاقب المضىء يقال أثقب فلان ناره إذا أضاء .

---

(١) سورة الطارق ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) سورة البقرة ٩٨ .

وأنشد :

واثقبَ لى نارَه فى الدجَى فبتُّ إلى ضوئها مُدلِجَا[1]

وقوله سبحانه : (وَالصَّافَّاتِ) قسَمَ بالملائكة وقوله تعالى : (وَالنَّجْمِ) قسم بالثريا ، وكذلك: (وَالْفَجْرِ) قسم بمبدأ النهار (وَالشَّمْسِ) قسم بآية النهار (والليل) قسم بشطر الزمان (والضُّحَى) قسم بالشطر الثانى ، (وَالْعَصْرِ) بجملة الزمان (وَالطُّورِ) قسم بالجماد (وَالتِّينِ) قسم بالنبات (والذارِيَات) (والْمُرْسَلَاتِ) قسم بالهواء (وَالْعَادِيَاتِ) قسم بالحيوان البهيم (وَالنَّازِعَاتِ) قسم بالناطق ، والقسم بهذه المصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل ، فقد تبين لك أن الفواتح المعجمات قسم بالصانع والمصنوعات وأكد ذلك مطابقتها لبعض المعربات .

الباب الثانى من الركن الثالث :

فى استنباط المعجزات المعجّزات لأرباب البلاغات فى جميع الأوقات .

قد تقرّر دلالة الفواتح المعجمة ، والقسم المفتتح بالقسم من الفواتح المعربة على الصانع والمصنوعات، وثبت أن المعجمة أقسام وعدة الجميع أربعون خاتحة دلّت بمفرداتها من غير تأليف ولا تركيب على البارىء ، وكل موجود الآن وما وجد من قديم الزمان وما يوجد . بعد فناء هذه الأكوان

(١) الإدلاج : السير بالليل .

من أمور الدنيا والآخرة، والأحوال الغائبة والحاضرة، وفصّلت فى البلاغة كلّ كلام فى بابها، وكل خطاب اتصل فى بديعها بأسبابها، وذلك أنها انفردت من أبواب البديع بثلاثة أبواب هى :

الإشارة[1]، والإرداف[1]، والتمثيل[1]، لا يخرج الإعجاز منها إلا بطريق هذه الأبواب دون غيرها من أبواب محاسن الكلام، لكونها كلام مفردات، وما عدا هذه الأبواب من أبواب البديع إنما يأتى فى الجمل المؤتلفات، هذا إلى كونها ألفاظ سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة مع الخلوّ من البشاعة، مؤتلفة بمعانيها ائتلافا تاما، تدل على معناها دلالة واضحة بإحدى طرق الاستدلال، فإنها بمفردات أحرفها البسيطة، وأعداد حروفها تدل على معان من الأبواب الثلاثة، وهى الإشارة والإرداف والتمثيل بطريقى التضمّن والالتزام، وتدلّ بصورها المركبة على حدتها، وتارة بما يأتلف معها من الأبواب الثلاثة أيضا بطريق المطابقة، وتوجب لمعانيها مبالغة تامة التوحيد، غير خارجة عن التحديد بحيث لو انحصرت الألفاظ اللغوية، والعبارات الغريبة الدالة على هذه المعانى، واجتمع حذاق النقاد وجهابذة الكلام على أن يجدوا فى اللغة — مع سعتها — لهذه المعانى أتم دلالة وأحسن طلاوة، وأمثل رشاقة، وأبلغ عبارة من هذه الألفاظ لم يجدوا وفى هذا أعظم دليل وأقوى برهان، وأوضح حجة على فصاحة القرآن وبلاغة معانيه وطلاوة نظمه، وحسن نسقه؛ ليس فى وسع الفصحاء ولا فى مقدور

(١) بديع القرآن : ص ٨٢، ٨٣، ٨٤.

البلغاء ، لأنك إذا رأيت منه هذه الكلمات المفردات دون جمله المؤتلفات قد فضلت الأبيات المتزنات من أعلى الطبقات ، وظهر لك سقوط ما يماثله بها بالنسبة إليها علمت أن المعارضة لم تكن فى قوى العرب وتحققت أنهم ما سلبوا عند التحدى ما كان مقدورا لهم من علوم الأدب ، إذ لو صح ذلك لوجد فى كلامهم قبل التحدى ما يماثله و يشاكله ، ويمكن الخصم أن يناضل به خصمه حين يناضله ، ولما لم يوجد فى كلامهم قبل زمن النبوة و إبان الرسالة ما هو بهذه المثابة بطل دعوى من يدعى الصرفة من المتكلمين ، وثبت الإعجاز للقرآن بفصاحته التى أفحمت القدماء والمحدثين ، وها أنا ذاكر لك من أشعار القوم ما يعارضه من هذه الفواتح بمثله فى بابه على مقتضى شرط الكتاب فى استخراج الإعجاز من مفردات هذه الكلمات دون الجمل المؤتلفات من طريق الإيجاز ، وهو أمر مختصر فى الأبواب الثلاثة التى قدمت ذكرها ، وهى الأبواب التى أصّلها قدامة بن جعفر الكاتب فى كتابه الموسوم بـ (نقد الشعر) وزعم الحسن بن بشر الآمدى أنها باب واحد ، وأن ذلك مما تداخل على قدامة ، ونعاها عليه من جملة أغاليط زعم أنها وجدت فى كتابه ، وساق ذلك فى رسالة كتبها إلى الأستاذ ابى الفضل ابن العميد ، والحق مع قدامه دونه ، وكل قد نظم أدلة على قوله .

غير أن لكلام قدامه أسرار لطيفة ربما تعذر كشفها على بعض الناس ، ولكلامه — أعنى قدامه — محامل ربما أخطأ فى تأويلها من أولها ، وذهب

إلى غير ما قصد إليه ، وفسر كلامه بغير ما أراده ، ونسب الخطأ إليه من هذه الجهة ، فإنى رأيت ابن رشيق القيروانى قد ذهب أيضا إلى تغليطه فى كتاب كان ستره أولى به من إظهاره ، فإنه ينادى عليه بجهله ، وهأنا مشير إلى الفرق بين هذه الأبواب ليعلم بحصول الفرق تعدد الأبواب ، فنبين غلط الآمدى ، وتصويب كلام قدامه إشارة مختصرة وأوضحها بالأمثلة ، ومن أراد شفاء الغليل فى ذلك فعليه بكتابى المنعوت (بالميزان) الذى بنيته على وزن كلام قدامة وكلام خصومه ، وترجيح ما هو راجح ، وتنقيص ما هو مرجوح وهذا أوان شرح تراجم الأبواب الثلاثة فافهمه موفقا إن شاء الله تعالى .

أما الإشارة : فهى عبارة عن إشارة المتكلم باللفظ القليل إلى المعانى الكثيرة .

وأما الإرداف : فهو أن يريد المتكلم العبارة عن معنى ما فيعبر عنه بلفظ هو ردف لفظه الموضوع له ، ولم يعبر عنه بلفظه المخصوص .

وأما التمثيل : فهو أن يريد المتكلم معنى ما ، فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له ، ولا بردف ذلك اللفظ القريب منه ، وإنما يدل عليه بلفظ غير لفظه ، وهو أبعد من لفظ الإرداف ، يصلح أن يكون مثالا له يفهم منه .

وأصل الإشارة مأخوذ من إشارة المشير إلى مايريد إفهامه ، فإنه

يومى بيده مَثَلا إلى مدينة بجملتها مرّةً واحدة ، أو إلى السماء أو إلى الأرض أو إلى جيش خِضم ، فلما كانت إشارة اليد وهى مدُّها إلى بعض الأشياء مرة واحدة يفهم منها هذه الأمور العظام ، والأحوال الجسام ، سمى اللفظ القليل الدّالّ على المعنى الجزيل إشارة .

ولفظ الإرداف مشتق من الرديف فإنه لفظ يقرب من لفظ المعنى الموضوع له قرب الرّديف من الراكب ، أى يكون مُمَاسّا له لا بُعْد بينهما البتّه .

ولفظُ التمثيل مشتق من المَثَل المضروب للشيء إذ لا يكون إلا فى معنى ذلك الشيء ، ولا يُشترط فيه القرب كاشتراطه فى لفظ الإرداف ، ولما كانت هذه الأبواب الثلاثة تتماثل من جهةِ أن حاصلَها واحد ، وهو أن كلاّ منها متى أراد المتكلّم العبارةَ فيه عن معنى ما ، عبّر عنه بغير لفظه الموضوع له ، وذلك أن حقيقةَ الإشارة التعبير باللّفظ الواحد عن معانى شتّى ، واللفظ الواحد الدّالّ على معانى شتّى هو غير اللّفظ الموضوع لتلك المعانى ، إذ لو عبّر عن تلك المعانى الكثيرة بألفاظها لاحتاجت إلى ألفاظ كثيرة .

والإرداف هو وإن كان كذلك إلا أنه لفظ واحد يدلّ على معنى واحد بخلاف لفظ الإشارة ، والتمثيل كالإرداف فى كونه لفظا واحداً يدلّ على معنى واحد ، وهو غير لفظه الموضوع له إلا أن لفظ الإرداف قريب من لفظ المعنى ، ولا كذلك لفظ التمثيل ، وفى لفظ التمثيل من الزيادة

على لفظ الإرداف كونه خارجا مخرج المَثَل المضروب للشيء ، والآمدى لحَظ مماثلة الأبواب فى الأصل ، وذهل عن هذه الفروق ، وسيتّضح ذلك أكثر من هذا الإيضاح ، ويقوّى بالنّظر فى شواهد الأبواب المذكورة إن شاء الله تعالى .

ولا يظنّ ظانّ أن هذه الأبواب وغيرها من أبواب البديع تُحْدث للصّور الكلامية حُسْنا بمجرّدها ، أو تزيل عنها قبحا ، فإنا نجد الصّورة من الكلام حسنة بدون البديع بتّة ، قبيحة مع وجود كثير من أنواع البديع فيها ، لأن الحُسْن فى الكلام والقُبْح أمر خارج عن البديع جملة ، وأكثر ما يكون من جهة التركيب بعد صحّة المعنى ودلالة اللّفظ عليه ، لأن التركيب فى كلّ مركّب يحدث أمراً لم يكن لذلك المركّب قبل التركيب ، فربّ ألفاظ مفردة موصوفة بصفات الحسن إذا ركّبت منها بيت شعر أو جملة موتلفة وجدت من تركيبها ذلك التركيب قُبْحا تنفر منه الطباع السليمة ، وتكرهه الأمزجة المستقيمة ، وهذا راجع إلى ائتلاف اللفظ بالمعنى ، ومنافرته له عند التركيب ، لكن متى اجتمع الصّور الكلامية انتخاب الألفاظ الموصوفة بصفات الحُسن ، المشهورة شهرة لا يُبلغ بها الابتذال الذى يُلحقها بألفاظ العامة ، وإنما تكون شهرتها شهرةً تُخْرجها عن قبيل الوحشىّ الذى لا يعرفه كثير من الخاصة ، وركبت تركيبا حسنا

سهلا بعيدا عن التعسّف بريئا من التكلّف ، ظاهرا لطلاوة ، صادق الحلاوة ، علية رونق الفصاحة ، مُفرغا فى قالب البلاغة ، ثم تحلّى بشىء من البديع الذى أتى به خاطرُ المتكلّم عفوا من غير كدّ ، سهلا من غير جهد ، وقيست هذه الصّور بصُور قد اجتمع لها جميع ما اجتمع لتلك إلاّ البديع ، فإن ما تحلّى بالبديع أحسن وأفضل وأجمل وأكمل من الّذى لم يتحلّ به ، وهذه الفواتح ، قد جمعت ذلك كله ، وزادت فى معنى البلاغة على كلّ ما وجد من هذا القبيل من ضربَى المتّزن وغير المتزن ؛ ويجب عليك أن تعلم أن النفوسَ للمتّزن أمْيَلُ منها إلى غير المتّزن لما بين الموزون وبين النفوس البشرية من الملاءمة ، ولذلك امتنّ البارئ — سبحانه وتعالى — على البَشر بخَلْقه الموزون — يعنى الحُسْن المتعادلَ النِّسَب — حيث قال سبحانه : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ[1] ﴾ وذلك أن الصّورة البَشَرِيّة والهَيْئَة الإنسانية أحسن الهيئات ، وأجمل المخلوقات ، وبذلك نطق القرآن العظيم حيث قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[2] ﴾ لاسيّما من كان منهم صحيحَ المِزاج ، ذكىَّ النفس، ذكىَّ القَلْب

---

(١) سورة الحجر : ١٩ .

(٢) سورة التين : ٤ .

متلظّىَ الفكر ، جيِّدَ الذِّهن ، مستقيم الحواسّ ، حسَنَ الاختيار ، كاملَ العقل ، تام القُوى النّفسانية ، سريع الإدراك ، متناسِبَ الأعضاء فاضلَ الرُّوح ، فإنه لا يَميل إلا لما يتعيّن الميلُ إليه ، ولا يعوّل إلا على ما يعوّل عليه ، ونحن نرى غالب النفوس تميل إلى الألحان الموزونة ، والنّغمات المستلذّة ، والأساليب الطّيبة ، والتّرجيعات الحَسَنة والأرْنمةِ[1] المُشْجِيَة ، ولا سيما إذا وافقت النقَرات المتعادلة النِّسَبِ المهيِّجة للطرب ، وإذا ثبت هذا علم أن ميلَ النفوس بالطبْع إلى الموزون من الكلام وغيره أكثر من ميلها إلى غير الموزون ، ومع هذا فإنك تجد الموزونَ الموصوفَ بجميع صفات الحُسن المنفيّ عنه كلّ صفات القُبح ، المحلّى بهذه الأبواب الثلاثة من البديع إذا قُرِن بهذه الفواتح ، وما ثلت بينه وبينها فى باب من هذه الأبواب ، وجدت النفوس الزكية ذوات الطباع السليمة إليها أميل إيثارا للفضيلة ، وترجيحا للمرتبة العليّة النبيلة ، لأن هذه الفواتح فى باب البلاغة أعلى رتبة من كلّ ما يماثلها ، وأرزَن حَصاةً من كلّ كلام يوازِنُها وَيعادِلُها ، لأنك ترى الكلمة الواحدة قد أفادت معانىَ تَضيق العبارةُ عن حصرها ، وتعيي الألفاظ دون عدّها ، ونجد البيت العالى من الشعر النّادر والمتخيّر من أشعار الشاعر الفاضل ساقطا

(١) الأرنمة : جمع واحده الرنيم وهي الألحان المشجية وفى الأصل الأزمة وهو خطأ.

فى معناه دون اللفظة الواحدة من هذه الألفاظ التى هى فواتح السّور مقصّرا عما جمعتْ من الحاصل الطائل ، والمعانى الجلائل ، فحينئذ يشهد أن هذا النمط لا يكون فى وُسع البَشر ، ولا يتأتى لمخلوق ، ولا يقدر عليه إلا القادر المُطْلق الذى عجزت قدرته القادِرين ، ويتحقّق أن عجْز المتكلّمين عن مماثلة كلامه كعجز أرباب الصناعات عن مماثلة مصنوعاته ، وكيف ينكر لمن خلق الأكوان والمكوّنات التى من جملتها السموات وعجز من سواه كائنامن كان ـ عن خَلْق واحدة الذباب، بل عن استرجاع مايَسْلبه الذباب من الإنسان أن يتكلم بكلام لا يستطيع أن يتكلم بمثله فصيح فى زمن من الأزمان ، وكيف يقال : إن العرب سُلِبت علومَها فى وقت التّحدّى . وهذا القول يلزم منه أنها قادرة على مثله قبل زمن النبوة ، وحين أداء الرسالة لأنها لاتُسْلب علومَها إلا وقت دعوى النبوة ، ليكون سلب العلوم قائما مقام التصديق لدَعوى النبوة ، وإذا لم تكن دعوى فلا سلب ، وإذا لم تُسلب علومَها فى غير وقت الدعوى كانت قادرةً على مثله ، وقد غبر للعرب زمان طويل ودهر مُمْتد لم يُسْمَع فى فصاحتهم بشىء يقاربه ، ولا كلام يناسبه ، هذا معنى مضى .

ثم نعود إلى ما كنا فيه من الإتيان بالأبيات التى هى شواهد هذه الأبواب وهى أبيات لفحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية الذين أجمع

النقاد على تقديمهم ، وتفضيل أشعارهم على ما أذكره فى هذه الأبواب ليماثل بينها و بين الفاتحة من فواتح الكتاب ، وقبل الإتيان بالأبيات تقدم مقدّمةً يجب تقديمُها فى هذا الباب :

فنقول : الصّور الكلامية والجُمل الخطابية فى البلاغة على ثلاثة أقسام تقسيم حاصر للبلاغة فى سائر الصّور ، وذلك إما أن يكون لفظ الجملة مساويا لمعناها ، أو يفضل المعنى على اللفظ أو بالعكس ، فالقسمان الأوّلان مُجمع على استحسانهما ، وهما المساواة ، أو زيادة المعنى على اللفظ ، وقسم مختلف فيه ، وهو القسم الآخَر ، وهو مازاد فيه اللفظ على المعنى وهو على ضربين ضرب اُضطرِ المتكلم فيه إلى زيادة اللفظ لشرح مُشْكِل ، أو كَشْف غامض ، أو تفصيل مُجْمَل ، أو توكيد غير مقرّر ، وهذا القسم مما يلتحق بما يُستحسَن دون ما يستهجن ، وضربٍ زاد لفظه على معناه لا لمعنى إلا لإقامة وزن أو استدعاء قافية ، وهذا القسمُ مجمَعٌ على استقباحه .

والأبواب الثلاثة من القسمين الأولين .

أما الإشارة فمن القسم الذى زاد فيه المعنى على اللفظ ، والإرداف والتمثيل من القسم الذى سَاوَى فيه معناه لفظه ، وإذا علمت ذلك فالحظ ما أورده لك من أبيات الفحول ، وقسه فى هذه الأبواب بالفواتح ليُحقق المقولَ المنقول .

أما باب الإشارة فأبلغ ما أنشدوا فيه قولَ الفحل على سائر الفحول ، الذى افتقرت له عين الشعراء ، المخترع الأول ، مبتكر معظم للمعانى للكلام امرؤ القيس بن حُجْر الكندىّ فى صفة الفرس[1] :

على هَيْكلٍ يُعْطيكَ قبلَ سُؤَالِهِ أفانينَ جَرْيٍ غيرَ كَزٍّ ولا وَانِ

فإنه أشار بقوله : (هيكل) إلى جمال خَلْق الفرس وتمام ، قوائمه وعَرْضه ، وغِلَظ جَنْبه وعِظَمِ هاديه[2] وكفله ، وأشار بقوله : (يعطيكَ قبلَ سؤاله أفانين (جرى[3]) غير كزّ ولا وان) إلى جميع ضُروب العَدْو الموصوفةِ بصفات الحُسن ، ووصف هذا الفرس ببَذْل ذلك من من نفسه طوعا من غير حثٍّ ولا ضرب ، ولم يكلف راكبه حَرَكَةَ يدٍ ولا رجلٍ ولا لسان ، فأثبت له جميع الأخلاق المُستحسنة ، ونفى عنه جميع الأخلاق المذمومة من مثله ، حيث نفى عنه العَرَن والجماح من قبل الكُزوزة ، والاسترخاء واللِّين والبطء من قبل الوَنى ، هذه إلى ما يجمع من فنون

---

(١) ديوانه : ٩١ الكز : الضنين ، والوانى : الفاتر المبطئ والمعنى يعطيك ماعنده من الجرى قبل أن تكلفه ذلك وتسأله إياه .

(٢) الهادى : العنق .

(٣) ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

العَدْو المستحسنة من لين الرَّأس وسُرعة الانحراف ، ووطأة الظهر وحدة النفس ، وتدفق العَدْو ومطاوعة الراكب ما لو عبر عنه بألفاظه الموضوعة له لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة بإزاء هذه المعانى كلِّها ، فانظر إلى ما اشتملت عليه ألفاظ هذا البيت من إثبات صفات الحُسن ، ونَفْى صفات القُبح فى الخَلْق والخُلُق لتعلم أنه النهاية بالنسبة إلى أمثاله فى هذا الباب ، لكن إذا حقق وجدت المعانى التى عبِّرتْ عنها ألفاظُه محصورةً وإن كثُرت ، ومتناهيةً إذا اعْتُبرت ، وربما أتينا آنفا على جملتها أو على معظمها بخلاف ما تدلُّ عليه لفظةفاتحةواحدة من هذه الفواتح ، فإن مدلولَها لايمكن العبارة عنه بتَّةً ، ولا تنحصر معانيه جُمْلَةً فيظهر لك سقوط البَيْت عن رتبة بلاغة (قَ) لأنها أشارت إلى أسماء الله سبحانه ، وهى مائة اسم ، أما التسعة والتسعون فلو ذكرت وشُرحت وفسِّرت لاحتيج فى التعبير عنها وعن معانيها إلى ألفاظ كثيرة جدا ، وأما الاسم الأعظم واختلاف الناس فيه ، وتباينهم فى كشف أسرارِه ومعانيه ، فلو تكلم عليه من جِهَتَىْ علم الباطن والظاهر لاتسع الخَرْق على الراقع ، ولاحتيج فى ذلك إلى ما يكاد يُعْجِز المتكلمَ والسامع ، ولفظة (قَ) حرف واحد فى الخط ثلاثة فى اللفظ ، فانظركم من بيت ركب من إحدى عشرة كلمة ركبت من خمسة وأربعين حرفا على حكم التقطيع العَروضى ، دلَّت على ما دلَّت عليه ، ودلَّ البيت

على ما دلّ عليه ثم ميّز بين المدلولين كثرةً لتقدُر هذه الفواتح قدرَها ، وتُعظم أمرَها ، هذه فاتحة بسيطة من المعجمة ، ثم قِسْه أيضاً بفاتحة من الفواتح المعربة المركبة المصدرة بالقَسَم ، مثل قوله سبحانه (وَالنَّجْمِ) لا سيمَا عند من يرى أنها قسم بجميع النجوم لكون الألف واللام عنده للجنس ، والنجوم فيها من الكواكب المسماة عند العرب ما يزيد على الألف حقيقة ، وما لا اسم له عندهم لا يُحصى عددا ، وما يتضمن ذكر النجوم من صفاتها وصورها وحركاتها ومسافة مَسِيرها واتصالاتها وأمزجتها وهيآت أفلاكها ، وَجميع أحوالها ، وما تدل عليه بحركاتها من الحوادث الأرضية ، والقضايا الجزئية ، وما يحصل بها من الهداية ومعرفة الأنواء والجهات ، وما تستلزم من تعظيم صانعها ومُبدعها ومُنشئها ومخترعها إلى غير ذلك مما لا يُحصَى كثرة ، ولا يدخل تحت حصر .

ومن هذا الباب قول زهير بن أبي سُلْمَى الذى شهد له أكثر النقاد بالتقدم على الأنداد ، وأعدل من شهد له قولا ، وأبعدهم فى النقد حُكما ، لحذْقه فى نَقْد الشعر ، ومعرفته بفنون النظْم والنثر ، عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فإنه كان من البُصَراء بهذا الشأن ، والمتعيِّنين فى ذلك الزمان حيث قال لعبد الله بن العباس — رضى الله عنهما — : أنشِدْنى لأشعر العرب ، فقال له : ومن ذاك ؟ قال : زهير . قال : وبم أستحقّ

ذلك عندكَ ؟ قال : رأيته لايتّبع حُوشِيَّ الألفاظ ، ولا يُعاظِل بين الـكلام ، ولا يَمْدح الرجال إلا بما يكون للرجال ، وهو القائل فى هذا الباب :

فإنى لو لَقِيتُك واتّجَهْنا   لكان لـكل مُنـكَرة كفاء[1]

فانظر إلى قوله : « لـكلّ منـكرة كفاء » ماذا يتعدّد تحت هذه الثلاث اللفظات من أجناس المنكرات لأن كلا اسم عموم يَسْتَغْرق الأجناس ، فقد استغرق بقوله كلّ منـكرة جميع أجناس المنـكرات ، وأشار بلفظ كفاء إلى مجازاة ما قدمه من أجناس المنـكرات لأن المكافأة تقتضى مقابلة الشىء بمثله ، وفعل الفاعل يشبه فعله ، كلّ هذا وإن عزّ حصرُه وعَظم أمره إذا قيس بمدلول فاتحة واحدة من الفواتح بالطريق التى بيّنت سقط دون معناها ، واضمحلّ دون بلاغتها وتناهى ، وعلى الجملة كل ما يوجد من كلام الثقلَين فى هذا الباب ولو بلغ أقصى درجات البلاغة ، وأعلى طبقات البراعة . فإنما يدلّ على معان منحصرة وإن كثرت ، ومنضبطة وإن اتّسعت ، وحصرُها إما واجب أو ممكن ، وإحدى هذه الفواتح لا يدخل حصرُ معانيها تحت الإمكان ، ولا يكاد يعبر عنها اللسان فإنك

---

(١) ديوانه : ٨١ ، والمقصود : مكافأة الشر بالشر .

قد عرفت أن لفظـــة (آلم) قد دلت على الصانع سبحانه ، وعلى جميع مصنوعاته ، وأفعال مخلوقاته الطبيعية والاختيارية ، وحركاتهم وسَكَناتهم ، وظروف أفعالهم الزمانية والمكانية ، وما ينقسم إليه المخلوقات من الجواهر المفردة والمركبة ، والأعراض وأسمائها وصفاتها وتغيّر حالاتها على اختلاف أوضاعها وهيآتها ، فالمح ذلك من شَرْح باب الإشارة ، وأنعم النظرَ فى شَواهده ، وماثل بينها وبين أمثالها من الفواتح لتهتدىَ إلى الصواب ، وتنتظم فى سِلْك أولى الألباب .

وأما باب الإرداف فقد تقدم شرح ترجمته ، وأنا الآن ذاكر بعضَ شواهده ليتضح لك معناه ، وتقف منه على فحواه ، ولا أذكر من شواهده إلا ما وقع الاختيار عليه فى بابه ، وحصل تمييزُه على أنداده وأضرابه . ومن ذلك قول عمرَ بنِ أبى ربيعة المخزومى[1] :

بعيدةُ مَهْوى القرط إما لنوفلٍ أبُوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

فإن هذا الشاعر أراد أنْ يَصِفَ هذه المرأة بطول العُنق فعَدل عن اللفظ الموضوع لهذا المعنى إلى لفظ هو رِدْفه وتابعُه ، وهو بُعْد مَهْوى القرط ، وإنما عدل عن اللفظ الخاصّ بهذا المعنى إلى هذا اللفظ لما فى هذا

---

(١) الديوان : ٤٣ .

اللفظ من الزيادة على المعنى الذى قصده ، وهو وصف هذه المرأة بأنها من ذوات الحُلىّ ، ومن بنات المُتْرِين ، وفى ذلك زيادةُ مَدْح لها بالثروة ، وتكميل لزينتها بالحلِىّ ، وأنها إذا كانت من بنات المُتْرِين كانت مُنَعَّمَةً غير شقية ولا مُمْتَهَنة ، ولا تحصل هذه الزيادات فى المعنى إلا بالعدول عن لفظ المعنى الموضوع له إلى لفظ يُعطى ذلك المعنى المطلوب ، ويأتى من ضِمْنه بهذه الزيادات المستحسنة فيدل هذا اللفظ الثانى الذى عَدَل المتكلم إليه على زيادات المعنى بدلالة المطابقة ، وعلى طول العنق بدلالة الالتزام ، فلهذا كان العدول إليه أولى ، والرجوع إليه أحْرى .

ومثل ذلك قولُ امرىء القيس[1] :

ويُضْحِى فتيتُ المسكِ فوقَ فراشِهـــا
نَئُومُ الضُّحى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

فإن امرأ القيس أراد أنْ يصفَ هذه المرأة برقة البَشَرةِ والنعْمة ، فنَفَى عنها ما يوجب الشَّظَف والخُشونة للأجسام من الامتِهَان والخِدمة ومباشرة الأعمال ، فذكر ما يدلّ على أنها مخدومة لها من يكفيها أمر حاجتها ومَهْنتها ليكون ذلك دليلا على ما أراد من وصفها بلِين البَشَرة ،

---

(١) ديوانه : ١٧ .

وإفراط النَّعْمة ، ثم عَدَل عن الألفاظ الموضوعة لهذه المعانى إلى ألفاظ هى أردافُها وتوابعُها مثل قوله : (نئوم الضحى) فإن نومها إلى الضحى يدلّ على أن عندها من يكفيها أمر بيتها ومهام أمرها ، وزاد ذلك إيضاحا بقوله : (لم تَنْتطق عن تفضل) أى لم تَشُدّ نطاقا فى وسطها من فوق شعارها الذى تنام فيه كما يَفْعل من يريد أن يَعْمل عملا ، وإنما عدل عن اللفظ الخاص إلى هذا اللفظ لما فيه من الزيادة على المعنى المراد ، فإن فى وصفها بكَثْرة النوم وشهوته ما يدل على الصِّبا ، وأنها فى سن النمو فإن كثْرة النوم غالبا من غلبة الدم على أصحاب هذه السّن ، وإذا كان الدّم مُتوفرا غالبا على سائرِ الأخلاط دلّ على قُرب المزاج من الاعتدال لأن طبعه طبع الحياة ، وهو الحرارة والرّطوبة ، ويكون اللون به مُشْرقا ، والماء فى الوَجْه كثيرا ، هذا إلى ما يدل عليه نومها من كَوْنها منعمة مُتْرفة ، لها من يَخْدمها لا سيما وقد قُدم قبل ذكر النوم ما يدل على الثروة والتخصص والتحبب للرجال ، واستمالة القلوب وتهييج الباه بالطيب حيث قال : (ويضحى فتيت المسك فَوق فراشها) ولم يرض لها من الطِّيب إلا بأغلاه ووصفه بالكثرة إلى أن يبقى فتيتُهُ على فراشها ضَحْوة من بعد ما تصعّد منه ولَحِق بجِسْمها ، وبقى فى شعرها أو بشرتها ، فجمع لها فى صدر البيت معظم الأوصاف المُسْتحسنة ، وأثبت لها ما أثبت من الخصوصية والسعادة ،

وأنها ممن يُسْمح لها بذلك لكونها معشقة محبوبة ، ونفى عنها فى العَجز كُل الأوصاف التى تدلّ على أنها مُطَّرحةٌ مُمْتهنة مع كونها مُخْدمة مكرّمة ، وما استلزم اللفظ الذى وصفها به من ذكر شَبَابها وحُسْنها ، ولو عبر عن المعنى الذى أراده وهو أنها مخدمة بلفظه الخاص له لم تَحْصل له هذه الزيادات .

ومثل معنى هذا البيت قول الهُذَلِىّ :

أرادت لِتَنْتَاشَ الرّداف فلم تقمْ إليه ولكن طأطأته الولائد[1]

غير أن بيت الهذلى ما فيه من بيت امرئ القيس سوى أن المرأة التى وصفها مخدمة ، وإنما عدل أيضاً عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف لأن فى لفظ الإرداف فى بيته زيادة على المعنى الذى قصدَه . وهو وصفها بالسمن والكَسَل لأنه ثقل البَدن .

ومثل قول الهذلى قول عمر بنِ أبى ربيعه :

ووالٍ كَفَاها كل شىء يهمُّها فليست لِشَىء آخرَ الليل تَسْهَرُ[2]

(١) تنتاش : تتناول ، الرداف : موضع مركب الرديف ، طأطأته : مهدته وهيأته ، الولائد : الجوارى ، والمعنى يقول : إنها أرادت أن تلى ذلك بنفسها فكفاها الجوارى ذلك لنعمتها .

(٢) ديوانه ٨٧ ط ١٩٥٢ ، وأراد بالوالى من يتولى شئونها ويقوم لها بحاجتها وهو يقصد أبوها .

وكلّ هذا من قول أمّ زَرْع فى حديثها الطّويل — والحديث صحيح مشهور — فى وصف زوجها (فعنده أنام فاتصبّح)فإنها وصَفَت بعلها بأنواع الإكرام لها ، ثم قالت فى ضمن أوصافها له : فعنده أنام فاتصبح لتدل على انها كانت مخدمة عنده ، قد اخدمها من يكفيها أمر بيتها ، فانظر إلى هذه المعانى التى دلّت عليها ألفاظ هذه الأبيات ثم قِسْها بقوله سبحانه وتعالى : (ص) فى باب البلاغة فإنك تجد هذا الحرف قد دلّ على جميع العوالم مشيرا بعدّده إليها ، فجمع مدلولُه كلّ موجود سِوى الله تعالى من الأكوان والمكان والزّمان ، وما يلزم من ذكر هذه الأشياء من الصّفات والأسماء ، والحوادث الكائنة والأمور الغائبة عن الحسّ والمعاينة ، هذا وهو حرف واحد فى الكتابة ، وثلاثة عند التّهجّى فى الحساب ، وقس على هذه الفاتحة غيرَها من الفواتح كقوله سبحانه فى الفواتح المعربة : (والطّور) وما ينقسم إليه الجَماد من أنواع الأحجار والجواهر والمعادن وصُنوف الحَصْباء ، وقوى هذه الأشياءوخواصّها ومنافعها ومضارّها وأسمائها ، وانظر إلى مدلولها ومدلول ما يأتى فى بابها من الأبيات لتقِف على حقيقة المعجزات والله أعلم :

واما باب التّمثيل فقد سبق شرح تسميته وعلمت الفرق بينه وبين باب الإرداف ، ومن شواهد هذا الباب قول الرّمّاح بن ميّاده[1] :

---

(١) تحرير التحبير ١٠٣ .

أَلَمْ أكُ في يُمْنَى يَدَيْكَ جَعَلْتَنِى فلا تَجْعَلَنِّى بعدها في شِمَالِكا

فإن هذا الشاعر أراد أن يقول : ألم أكن مقربا عندك فأصبحت مبعدا ، أو مكرما لديك فأمسيتُ هيّنا عليك ؟! فلم يأت بالألفاظ الموضوعة لما أراد ، وإنما أتى بألفاظ تصلُح أن تكون مثالا لها ، وتقدير كلامه : كنتُ عندك من أصحاب اليمين ، فصرتُ من أصحاب الشمال ، فضرب هذا القول مثلا له حيث كان قريبا فأصبح بعيدا ، وعزيزا فأمسى ذليلا قياسا على أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال ، وإنما عدل عن اللفظ الخاص لهذه الألفاظ لكونها توفى له بمقصوده ، وتزيد زيادات لاتحصُل باللفظ الخاص للمعنى الذى أراده ، والزيادة هى ما يحصل من هذا اللفظ من زيادة القرب ، وكثرة الإكرام ، لأن اليمين مكرمة عن النّجاسات ، منزّهة عن القاذورات ، مؤهّلة لِعَقْد التّسبيح والتّشهد والطعام والشّراب ، واسمُها مشتقّ من اليُمْن وهو البَرَكة ، وقد نطق الكتاب العزيز بتفضيلها حيث قال سبحانه : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[1] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ[2] ﴾ فى كثير من ذلك ، ووردتْ السّنّة بتفضيلها والحضّ على التّيامُن حيث قال — صلى الله عليه وسلم — من حديث أنس بن مالك — رضى الله عنه — إذ : «قال سَمَّيْتُ

(١) سورة الواقعة : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) سورة الحاقة : ١٩

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبو بكر عن يساره وأعرابيٌّ عن يمينه فلما شرب رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — عَدلْتُ بالإناء إلى أبي بكر — رضي الله عنه — فقال : اسْق الأعرابي الأيمن فالأيمن » ، وقول عائشة — رضي الله عنها — كان رسول الله صلى — الله عليه وسلم — يُحب التّيامن حتّى في وضوئه وانتعاله ، والشمالُ مؤهّلة للاستنثار (١) ، والاستنجاء ، واسمها مشتق من الشؤم ، وهو ضدّ البركة ، واليمين أشد بطشا من الشمال غالبا ، وأقرب إلى صاحبها تناولا ، فكان تقدير كلامه الذى يعطيه هذا اللفظ الذى عدل إليه : ألم أكن مكرّما عليك ، محترما عندك ، مقرّبا منك فأصبحت بضدّ ذلك ، ولو عبّر عن المعنى الذى أراده فى المعاتبة على إبعاده له بعد تقريبه بلفظ هذا المعنى الموضوعِ له لما أفاد هذه الزيادات ، من هذه الأمثلة يظهر لك الفرق بين الإرداف والتمثيل ، لأن لفظ الإرداف أقرب إلى لفظ المعنى من لفظ التمثيل ، وهذا ظاهر لمن تأمله والله أعلم .

فانظر إلى أبيات هذا الباب وماثلها من قوله تعالى بأخرى الفواتح البسيطة وهى: (ن) وانظر مدلول البيت الذى تقدّم ذكره وشرحه من مدلول هذا الحرف ، فإن معانى البيت قد أتيت عليها فى ألفاظ قليلة دلّت عليها بالمطابقة ، وهذا الحرف قد أشار إلى جميع أمور الآخرة كما أشارت

(١) فى الأصل : الاستئثار ؛ وهو تحريف والاستنثار : إخراج ما فى الأنف من ماء وغيره .

(ص) إلى جميع أمور الدنيا فإن هذا الحرف أعنى (ن) أشار إلى ملك الموت والملكين ، والكتاب ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والحوض ، والجنة ، والنار ، وأبوابهما ، وخزنتهما ، وأعمال البشر وجزائهم عليها ، وهذه الأشياء لو عبّر عنها مفصّلة بأسمائها وصفاتها واشتقاقها وشرح معانيها ، وكَشْف أسرارها بألفاظها الدالّة عليها وعلى لوازمها بالمطابقة لضاقَتْ العبارة عنها وعجَزتْ الألفاظ عن استيعابها ، فانظركم بين الحرف والبيت من البَوْن البعيد فى باب البلاغة ؟ لتعلم قدرَ هذه الفواتح ، ثمّ أنظر أيضا بينها وبين قوله سبحانه فى الفواتح المُغْربة (وَالتِّينِ) وإلى ما تشير إليه هذه اللّفظة من أنواع النّبات ، والمح كم صنّف المتقدمون فى هذا الجنس من الكُتُب ، ومن يُحصى جنس النبات من شجر ، وكَلأ وحبّ وعصْف ، وما يتكوّن من ذلك من أغصان وخَشبَ وسيقان وشوك وورق وثمر ، وغير ذلك ، وما لهذه الأشياء من المنافع والمضار بالفعل والخاصّية ، وما لها من القُوى والأمزجة والتأثير فى أجسام الحيوان ، والأفعال بسيطة ومركبة ، وما يكون لها من قبل التركيب وبعده من الكَيْفِيّات لتعلمَ فرْقَ ما بينها وبين غيرها من كلام البَشر ، ويظهر سقوطُ ما أوردناه وغيره بالنسبة إليها لكل من نظر والله أعلم .

وكأنّ بقائل يقول : ما مِنْ بيت من الأبيات التى ذكرتها ، أو من غيرها ، أو جملة من الكلام ، أو صورة من صور الخطاب إلا وأنت قادر على أن تفعل فيها ما فعلته فى هذه الفواتح ، لأنه ما من حرف من حروف المعجم إلا وله عدد حسابىّ ، وإذا تخيّلتَ له هذا التخيّل وجدت له نظيرا من أعداد الوجود قد أفرط كثرةً ، فإذا نظرت بين ذلك الحرف من ذلك البيت ، أو من تلك الجُملة وبين قصيدة كاملة من أفضل قصائد العرب من حيث أن مدلول القصيدة دون مدلول ذلك الحرف بحيث لا تهتم بحروف تلك القصيدة اهتمامك بذلك الحرف وجدت ذلك الحرف أبلغَ من تلك القصيدة ، وقدرت على أن تنظم من هذا دليلا على أن الحرف الواحد من بيت من شعر ابن حجّاج أفضل من شعر (قفانبك[1])

فإنى أقول : ليس الأمر كذلك لأن حروفَ المُعجم ، و إن كانت لكلّ حرف منها عدد حسابى ، فإنها موضوعة ليوضع منها الكلام بتركيب الألفاظ المفردة من مفرداتها ، وتأليف الكلام من تلك اللفظات المفردات ، فلو تأولت منها حرفا أو أحرفا هذا التأويل وبينت أعدادها ، واستخرجت لها أعدادا توافقها من الوجود لكان هذا كلاما غير سادّ لأنه لا مَعْنى له ، وحاصله أن تخرجَ الحروف عما وضعت له ، و يبطل الانتفاع بها فى ذلك الكلام ، وكذلك لو فعلتَ ذلك ببيت شعر ، أو جملة نثر حتى تعمدَ إلى حرف من البيت

---

(١) اشار المؤلف بهذا إلى امرئ القيس إذ هو قائل هذه القصيدة .

أو كلمة من الجملة ، ، فتتأولها هذا التأويل لما انتظم ذلك مع بقية البيت ، ولا ائتلف معناه بمعنى سائر البيت ، ولانكسر ذلك البيت واختلّ نظام تلك الجملة ، ولأتيت بمعان من تأويل الأعداد لا توافق بقية الكلام ، وما رأينا ولا غيرُنا شعرا قصيرا أو طويلا ، ولا خطبة ولا رسالة ولا وصيّة ولا موعظة ولا شيئا من الصّور الكلامية ، والجمل الخطابية افتتحت أوائله بحروف بسيطة تارة ، ومركبة طورا لامفهوم لظاهرها يضطّر العلماء لكشف سرّها ، والنظر فى أمرها إلا هذه السّور الفرقانية ، فإن فواتحها فى الغرابة كاسلوب القرآن كله وطريقة نَظْمه ، فإنها طريقة لم يتقدّم للعرب مثلُها ، وقد اختلف العلماء فيها على حسب قوى أنفسهم ، وتكلم كلّ منهم بما قَدَر عليه ، وأدى اجتهادُه إليه ، ولا نطيل بذكر كلامهم فإنه موجود فى كتب التفاسير ، وأسير ما قيل : إن المرادَ بها — والله أعلم — أن تجمع هذه الفواتح أعنى المعجمة ، وتجدّ فيما تكرر منها وتحسب أصول حروفها ، وتجمع ذلك فتكون إشارة إلى عُمْر هذه الملّة الإسلامية ، ومدّة بقاء هذا الكتاب فى أيدى المسلمين من لَدُن نزوله على نبينا — صلّى الله عليه وسلم — إلى وقت رفعه من الصدّور والصّحف على رأى من يرى أنه يُرفع كما نزل مانتزاعه من الصّدور ، أو بموت الحفّاظ له أو انقراضهم ، وهذا هو الصّحيح لقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إن الله لَا يَقْبض العِلْم انْتِزاعا من صدُور العلماء ، ولكن يَقْبض العَالِمَ بعلمه » الحديث وذلك ستمائة عام وثلاثة

وتسعون عاما ، وهى وَفق عَدَد حروف المُعْجمة الأربعة عشر حرفا الأصول، وكنت عند نظرى فى هذه الفواتح اعتبرتُ بسائطها التى هى أصولها فوجدتها أقساما بدليل عطف المجرور بالقَسَم عليها كما تقدّم آنفا ، فعلمتُ أنها أقسام ، وقد ثبتَ أنها الأصول لكونها بسيطة ، وأن المركّبة منها فرع عليها ، إذا للمركّبة فرع على البسيطه فلما ثَبَتَتْ لها الأصليّةُ وثبتت للمركّبة الفرعيّة قست المركّبة عليها قياسَ الفرْع على الأصل لوجود العلّة الجامعة بينهما ، فثَبتَ أن جملتها أقسام أعنى المُعْجمة ، ولا يصحّ مع كونها أقساما أن نتأول لها ذلك التأويل فإنه يوجب اختلالَ صورها بحذف المتكرر منها ، ولأن معناه لا يلائم معنى ما يليها من الكلام ، ثم هو معنًى لجملتها لا لتفاصيلها ، فنظرتُ حتى استخرجتُ لها معانى من جهة أعداد حروفها وانقساماتها تصحّح لها معنى القَسَم ، وتناسب معانى ما بعدها ، وتكمل عدّتها مفصّلة ، وتأتى على شَرْح جُملة صُورها ، ومفردات حروفها وأعدادها بطريق آمنة من الطعن والنّقد ، فكيف يقاس على هذه غيرها ؟ وغيرها من الجمل الكلامية وُضع لمعان تخصّه متى حمل به ما حمل بهذه اختلّت تلك المعانى، ودخل فيها مالا يناسبها ، ولا يأتلف معها ، وليس فى كلام المخلوقين ماهو بهذه المثابة ، فلا يقاس عليها غيرها والله أعلم .

وأما الفواتح المعربة فإنى نظرتُ فيها بعد الفواتح المُعْجمة فوجدتُ

عدّتها تنقسم خمسات لا تنفصل عنها ، ولا تنقص منها ، ثم رأيتها تجمع أقسام الكلام اللغوى ، والكلام الصناعى ، وقد تقسّمت على الأعداد الثلاثة ، وتقدّمت الخمسة على اختيها ، ووقعت أكثر منهما ، فعلمتُ أن هذه الأعداد لها مزيّة على غيرها من جمل الأعداد فنظرتُ فوجدتُ لها من الخواصّ ما قدّمت ذكرَه ، ولما تمّ لى ذلك سَهُل علىّ استخراج الإعجاز من مجرّد هذه الكلمات ، إذ هى مائة وأربع عشرة كلمة مفردة ، كلّ كلمة منها على انفرادها موصوفة بصفات الحُسْن فى تركيبها ، دالّة على معنى حَسَن فى نفسها ، أو مشيرة إلى معان يَلْزم من وصفها ذكرها مؤتلفة مما بعدها ائتلافا تامّا ، لو جُمع مدلولها على انفرادها وبعد ائتلافها بما بعدها لفضل على مدلول كلّ كلام تكلّم به الأولون والآخرون ، فانظر إلى ما اختصّت به هذه الألفاظ التى هى فواتح هذا الكتاب من الأسرار الخفيّة والحِكَم الآلهية وتيقّن أن مثلَ هذه المبادئ يعجز عنها الثقلان ، ويقصر عن وصْف بلاغتها كلُّ لسان . وإذا استُخرِج الإعجاز من هذه الفواتح للفردات فما ظنك بالسّور والآيات والله اعلم .

وقد بَقِيتْ سريرةٌ لطيفة وخَبِيئةٌ دقيقة فى مجموع هذه الفواتح أحببتُ أن اختمَ هذا الكتاب بها ، ففرّغ ذهنَك لها فإنها من ألطف ما يقال فى هذا المقام ، وأدقّ ما يُشار إليه من معانى هذا الكلام ، وهى أن نبيّنا — صلى الله عليه وسلم — فَضَل جميعَ الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — بخصائص

خصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها ، وكرامات أكرمه بسببها ، ومنها بقاء معجزته العظمى وآيته الكبرى بعد وفاته وكل شيء لا تبقى معجزته إلا مدة حياته ،وذلك لإنجاز وعده له،فإنه وعده ببقاء دينه لكونه بعثه للناس كافة ، وجعل شريعته ناسخة لجميع الشرائع ، ودينه ماحياً لجميع الأديان ، ومن أسمائه ـ عليه السلام ـ الماحي بدليل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ(١) ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢) ﴾ ولا سبيل إلى بقاء هذه المعجزة السمعية بعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا ببقاء رواة ثقات ليسمعوها منه وينقلوها عنه مجمعين عليها إلى أن يبلغ من طائفة إلى مثلها أهل كل زمان، وجيل كل أوان ، ولا بد وأن يبلغوا في الكثرة إلى حد لا يمكن تواطؤهم على الكذب ليحصل بخبرهم العلم اليقيني ، وتجتمع القلوب على تصديق خبرهم ، وتحقيق أثرهم ، مصممين غير مرتابين ولا شاكين، ولما سبق ذلك في علمه ـ سبحانه ـ أسره إلى نبيه ملغزا في مجموع فواتح هذه السور لأن عدتها مائة وأربع عشرة فاتحة ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات على مائة ألف صحابي وأربعة عشر ألفا صحابيين ممن سمع منه ووعى وروى عنه ودرى ، ومجموع هذا العدد لا يتصور تواطؤه على

---

(١) سورة سبأ : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران : ٨٥ .

الكذب مع أنهم عُدول بتعديل الله ـ سبحانه ـ وتعديل رسوله ، أما تعديل الله تعالى لهم فبقوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١) ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ (٢) ﴾ وأما تعديل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فبقوله لهم : (أنتم شهداء الله في الأرض) وبقوله : (لن تجتمع أمتي على ضلالة) ، وبقوله : (خير القرون قرني) ، فقد نقلت هذه الجملة ـ جملةُ القرآن ـ ولو فصلت هذه الجملة آلافا لكانت كلُّ ألف كأنها قد اجتمعتْ على نقل سورة منه وكل سورة وقع بها التعجيز ، فكأن كلَّ ألف من الصحابة نقلت معجزةً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والألف عدد لا يمكن تواطؤه على الكذب غالبا ، لاسيما وقد حصل بخبرهم تصميم القلوب على التصديق ، وإن كان التواتر لا يُشترط فيه عددٌ معيَّن ، وإنما شرطُه الكثرة التي يستحيل معها تواطؤهم على الكذب ، واستواء الطرفين والواسطة ، والإخبار عن مُعايَن ، أو مسموع من صادق ، وتصميم السامع على التصديق بحيث لا يشك فيه ، وأما بلوغ أصحاب الرسول إلى هذه العدة من بعده فمن حديث صحّ عن أبي زرعة الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ وكان من كبار الحفاظ وعظماء العُدول ورءوس الثقات ، وفضلاء أهل الحديث

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠

(٢) سورة الفتح : ١٨

متقدّم السن ، جليل القَدْر فإنه رُوى أنه قيل له : إن حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلّه أربعة الآف حديث ، فقال : ومن قال هذا قلقل الله أنيابه ، هذا قولُ الزنادقة ، ومن يحصى حديثَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ـ لقد قُبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن رَوى عنه وسَمِع منه ، فقيل له يا أبا زرعة هؤلاء أين كانوا ، وسمعوا منه ؟ قال : أهل المدينة ، وأهل مكة ، ومَن بينهما من الأعراب ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن شهد معه حجّة الوداع ، وأبو زرعة هذا لا رادّ لروايته ، ولا مَطْعن فى درايته ، فانظر إلى إشارة هذه الفواتح بعدد صورها إلى عدد من ينقلها بعد الذى أُنزلتْ عليه مع اجماعهم عليها وصرفهم الهمَم إليها ، وما تضمّنت هذه الإشارة من الإخبار بالغيب الذى أخبرتْ هذه الفواتح بمفرداتها بالغيب خبرا صادقا ، كما أخبرت بعضُ الجمل المؤتلفة من القرآن بالغيب خبرا صادقا كقوله سبحانه ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ[1] ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ وما أشبه ذلك ، والإخبار بالغيب مُعْجز من كبار المعجزات وآية من أعظم الآيات ، فقد صحّ استخراج المُعْجز من مفردات هذه الفواتح ، فاشكر لمن استخرجها بما

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ .

خطر له من الخواطر السّوانح ، وأسأل الله لَكَ أيها المطّلع على هذا الكتاب ولمؤلفه الثّواب ، وهب مايقع فيه من الخطأ إلى ما وَقَع فيه من الصّواب ، وادْع لوالديك ووالديه ، ولجميع من يقف عليه .

تم ونجز والحمد لله على نِعمه التي لا تُحصى عددا ، ولا يقطع كرمُه لها مَددَا ، وصلّى الله على سيد الأمة محمد نبيّه ورسوله ، وصفيّه صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم .

فهرس الموضوعات

تقديم الكتاب : صفحة

المقدمة : — موضوع الكتاب ، أسباب تأليفه ، الدواعى التى دعت إلى نشره ١ — ٦

حالة الأمة العربية قبل نزول القرآن وبعده : ٧ — ١٢

كانت قبل نزول القرآن متفرقة ، حاجتها إلى ثورة عالمية وهزة إصلاح كلية ، رسول الإصلاح والسلام ، القرآن دستور المجى — القرآن ضمن للفرد حريته ، وأطلق له حرية استثمار الحياة ، القرآن يذم التواكل ، القرآن وإصلاح الأسرة ، القرآن والمعاملات القرآن والقومية . رأى بعض المستشرقين فى دستورية القرآن

نظم القرآن ... ... ١٣ — ٢٧

إعجاز القرآن ، أراء بعض العلماء فى الإعجاز ، ابن أبى الأصبع والإعجاز ، العلماء الذين قالوا بإعجاز القرآن البيانى ، نظم القرآن يختلف عما اعتاده شعراء العرب وبلغاؤهم ، آداب العرب قبل الإسلام كانت وصفيه ، القرآن بعكس ما كان ينسجه العرب ، القرآن والحقيقة ، الإيجاز مع الإعجاز فى القرآن ، احتواء القرآن على قواعد البيان العربى ، القرآن والقصص .

القرآن والعلم ... ... ٢٨ — ٣٦

القرآن كتاب علم وتعليم وهداية وإرشاد . حوى القرآن أمهات المسائل ورءوسها ، فيه علم الهندسة وكثير من أنواع الصناعات ، أسماء سوره من أسباب إعجازه ، الرعد ، الذاريات الحديد ، الانفطار .

صفحة

فواتح السور القرآنية ... ... ٣٧ — ٦٢

إتجاه العلماء إلى تفسيرها ، الطرق التى سلكوها ، عدد كبير من أقوالهم فى معناها ، ابن أبى الأصبع والفواتح ، رأى السيد رشيد رضا ، رأى الشيخ أبى اسحاق ابراهيم أطفيش ، المستشرقون والفواتح ، رأى الأستاذ محمد الهندى ورده على الأستاذ نصوح طاهر الفلسطينى ، رأيى فى هذه الأقوال كلها

كتاب الخواطر السوانح : موضوعه ، منهجه ، نسخة الأم ٦٣ — ٦٧

مقدمة المؤلف ٧١ . الأركان التى بنى المؤلف عليها الكتاب ، ٧٤ ، الركن الأول فى حصر الفواتح وأقسامها وتعريف أعرابها وإعجامها ، الباب الأول من الركن الأول فى تعريف المعجمة وأعدادها المنقسمة إليها ٧٥ ، الباب الثانى من الركن الأول فى الفواتح المعربة ٧٧ ، الركن الثانى فى كشف أسرارها وإيضاح خصائصها وإظهارها ، ٨٣ ، الباب الأول من الركن الثانى فى كشف أسرار المعجمة وأعدادها المنقسمة إليها ٨٣ — الباب الثانى من الركن الثانى فى بيان انقسامات المعربة ٨٥ ، الركن الثالث فى الاستدلال على كون هذه الفواتح دالة على الصانع والمصنوعات ٩٣ ، الباب الأول من الركن الثالث فى الاستدلال على الصانع والمصنوعات ، ٩٣ ، الركن الثانى من الباب الثالث فى استنباط المعجزات المجزّات لأرباب البلاغات ، مقارنة بعض الفواتح ببعض أبيات الشعر ١١٢ ، رأى ابن أبى الإصبع فى تحسين الألوان البديعة وأثرها فى بلاغة الكلام ، رد المؤلف على المعترض على دراسة الفواتح بطريقته التى أوضحها فى كتابه ١٣٣ ، سريرة لطيفة وخبيئة دقيقة فى مجرع هذه الفواتح ١٣٦ .

فهرس المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الطبع
القرآن الكريم		
الاتقان فى علوم القرآن	السيوطى	مصر ١٢٧٩
الاسلام والطب الحديث	الدكتور عبد العزيز اسماعيل	ط الثانية القاهرة ١٩٥٩
الاستدراك	ابن الأثير	القاهرة ١٩٥٨
أقرب الموارد	الشرتونى	بيروت ١٨٨٩
الله والعلم الحديث	عبد الرازق نوفل	القاهرة ١٩٥٧
بديع القرآن	ابن أبى الاصبع	القاهرة ١٩٥٧
البرهان فى علوم القرآن	الزركشى	القاهرة، ١٩٥٨/٥٧
تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلانى	الهند حيدر أباد ١٣٢٧
تأويل مشكلة القرآن	ابن قتيبه	القاهرة ١٩٥٤
تفسير القرآن الحكيم	محمد رشيد رضا	القاهرة ١٣٥٤
تحرير التحبير	ابن أبى الاصبع	خط
الجامع لأحكام القرآن	القرطبى	دار الكتب المصرية
دعوة الاسلام إلى العلم	يحى أحمد الدريرى	القاهرة ١٩٤٤
ديوان	عمر بن أبى ربيعة	القاهرة ١٩٥٢
ديوان	امرىء القيس	القاهرة ١٩٥٨
ديوان	زهير بن أبى سلمى	دار الكتب المصرية
الظاهرة القرآنية	مالك بن نبى (ترجمة عبد الصبور شاهين)	القاهرة
القاموس المحيط	الفير وزبادى	١٢٣٠
القرآن والعلم الحديث	عبد الرازق نوفل	القاهرة ١٩٥٩
كتاب الشعب	العدد رقم ٦٥	القاهرة ١٩٥٩

اسم الكتاب	المؤلف	الطبع
لسان العرب	ابن منظور	القاهرة ١٣٠٠ـ ١٣٩٧ هـ
مجلة المسلم	السنة التاسعة العدد الثامن	
مجلة الأزهر	ج ١١ ، ١٢ سنة ١٩٥٩	
مجلة رسالة الاسلام	العدد الثاني والثالث سنة ١٩٥٩	
مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي	القاهرة ١٢٧٨

الاستدراك

الخطأ	الصواب	السورة
والآية الثالثة التي تعني	والآية التي تعني	التكوير : ٦